العايش زهواني

قشة غريق

رواية

العكاظية
للنشر والتوزيع

قشة غريق

قشة غريق

رواية

العايش زهواني

العكاظية
للنشر والتوزيع

اسم المؤلف: العايش زهواني

اسم العمل: قشة غريق

نوع الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: حنان ميزو

تنسيق: راغب بوتمجت

ردمك: 978-9969-515-35-0

الطبعة الأولى: 2025

الناشر: العكاظية للنشر والتوزيع

الهاتف: 0658908590

الواتساب: 0662917273

marwa.25cben@gmail.com

لايسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أوإلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر

تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب

بسم الله الرحمان الرحيم

توطئة

الرواية عبارة عن خيال وإسقاط على الواقع المعاش، أو كما يقال حقيقة بتصرف، وقد تتشابه بعض الأسماء فيها مع أخرى في الواقع، وهي لا تمت لها بأي صلة لا من بعيد ولا من قريب.

الاهداء

الى روح والدي الكريم

الى والدتي

الى زوجتي سندي في الحياة

الى ابنتي لجين واسيل

الى روح ابنتي تسنيم

الى اصدقائي النادرين الذين دعموني بكل قوة.

الفصل الاول: النشأة

الفصل الثاني: التيه والضياع

الفصل الثالث: القشة

الفصل الرابع: الغرق

الفصل الخامس: صحوة الضمير

الفصل السادس: بر الامان

الفصل الاول: النشأة

كان عدلان الصغير ذو الثلاث سنوات تقريبا، يحوم حول أخته الكبرى، التي ربطت بحبل من كلتا يديها، في وتد من الأعمدة الخشبية، ذات الشكل الهرمي، التي نصبت في منتصف الغرفة، والتفت حولها الام والعمة والخالة وثلاث عجائز اخريات، يحجبنها بستار عن بقية من كان في الغرفة، من النساء والاطفال الصغار، وكانت احدى اخواته التي تكبره ببضع سنوات تحاول امساكه، لكنه سرعان ما كان يفلت من بين يديها، بخفة منقطعة النظير، وكانت امه تصيح ابعديه، ابعديه.. فقد يسقط في الماء الساخن، ويعطل عملية توليد اخته.

حيث فاجأ المخاض أخته المتزوجة في ذلك اليوم، وكانت قد جاءت لتقيم معهم منذ أسبوع، منتظرة أن يحين موعد ولادتها، فاستدعت الأم على جناح السرعة تلك العجائز اللواتي يتخصصن في توليد النساء، إذ لم يكن في تلك الحقبة من سبل أخرى سوى هذه الوسائل التقليدية في التوليد، وكانت المستشفيات تُعد على الأصابع، ولا توجد إلا في المدن الكبرى، التي تبعد عن تلك القرى والدواوير بمئات الكيلومترات، ولم تكن تتوفر إلا على بعض الأطباء العامين، وقلة قليلة من الجراحين والمختصين، وتفتقر إلى

الإمكانيات الطبية، ما عدا بعض الوسائل البدائية التي لا تغني ولا تسمن من جوع، ولذلك، كانت أغلب عمليات الولادة تتم بصورة تقليدية داخل البيوت، بواسطة تلك العجائز المتمرسات، مستخدمات الأعشاب والزيوت التقليدية بدلاً من الأدوية والمستحضرات الكيميائية.

وفي لحظة ما، سُمع صراخ مولود ممزوج بصراخ أخته، التي كانت تتلوى وهي تتمسك بالحبل الذي يقيد كلتا يديها ويربطها بأعلى الوتد، واشتدت حركة تلك العجائز يميناً وشمالاً في الغرفة، ثم أمسكته أخته من مؤخرة قميصه الطويل البالي، الذي كان لا يرتدي سواه، ورفعته إلى الأعلى، وهي تصرخ: "تعالَ إلى هنا أيها الوغد!"، وأبعدته إلى آخر زاوية في الغرفة، وأجلسته في حجرها، وهي تضمه بكلتا يديها إلى صدرها، وفي تلك اللحظة، حملت إحدى العجائز المولود الجديد في خرقة من قماش أبيض، وسلمته إلى جدته قائلة: "إنه طفل"، وأطلقت مباشرة عويلاً متواصلاً من الزغاريد، وتبعتها بعض العجائز والنسوة بصرخات ممزوجة بين الفرح والزغاريد أيضاً، وأخذت الجدة تنشد ترانيم مختلطة بألفاظ دينية، بألحان تقليدية معتادة لمثل هذه المناسبات.

إنها إحدى اللحظات الأولى من حياته التي يتذكرها دائمًا، حتى عندما صار شابًا، فالذكريات من هذا النوع قد ترسخ في النفس كنقاط مضيئة تبرز وسط الظلام، أو كنجوم تتلألأ في الأفق البعيد، وهذا ما حدث له، فقد احتفظ بهذه الذكرى لميلاد ابن أخته الذي يصغره بثلاث سنوات تقريبًا، لقد احتفظ الفتى بذكرى عفوية من أيام الشتاء القارسة، وتلك النسمات الباردة التي كانت تلفح مؤخرته العارية، والموقد الصغير الذي كان يشتعل في زاوية الغرفة ليبعث بعض الدفء، وأخته حين أطلقت صرخات حادة وآهات موجعة لحظة الولادة، والأم تحمل ابن أخته وهي تدعو الله أن يحفظه، وتدهن جسمه النحيل ببعض الزيوت والأعشاب وتلفه ببطانية من قماش أبيض، وأخته، التي تكبره ببضع سنوات، وهي تضمه إلى صدرها بشدة قوية تؤلمه حتى لا يعاود الإفلات منها، وتلك العجائز والنسوة وهن يقمن بتوليد أخته، ثم يطلقن بعدها زغاريد متقطعة، ويحملن أم المولود إلى فراش بجانب الموقد، ويكدسن فوق والدته الأغطية، يا لها من لوحة قد انحفرت طوال عمره في ذاكرته القوية!

بالرغم من أن له ثلاثة إخوة أكبر منه، أصغرهم يكبره بثلاث سنوات فقط، وثلاث أخوات، أغلبهن أكبر منه سناً، وواحدة فقط تصغره بسنتين، إلا أنه عاش تقريباً معظم تلك الفترة وحيداً، لا يلقى الاهتمام الكافي الذي يستحقه ويحتاجه كأي طفل في سنه، حتى من والده، الذي كان يحبه ويفضله على بقية إخوته، وكثيراً ما كان يحتضنه ويضمه بين ذراعيه في كل لحظة يكون فيها بجانبه، خاصة عند عودته مبكراً إلى المنزل من عمله الشاق الذي كان يزاوله، والذي كان يجعله غائباً عن البيت معظم الوقت، كان واضحاً أنه يحبه حباً صادقاً عميقاً، كما لم يحب أحداً من إخوته، وكان والده رجلاً بسيطاً، يعمل في إحدى شركات البناء كعامل مساعد، يخرج من المنزل باكراً ولا يعود إلا مساءً متعباً منهكاً من شدة العمل الشاق الذي يمارسه، ولم يكن له من أيام الراحة سوى يوم الجمعة، الذي يرتاح فيه ويخصصه للعبادة في المسجد الوحيد وسط الحي، فالعمل الشاق ومتطلبات الأسرة التي كانت تلازمه يومياً جعلته قليل الاهتمام بأبنائه، رغم أنه كان يحاول جاهداً أن يوفر لهم كل ما يحتاجونه من ضروريات المعيشة ومتطلبات الحياة، لكن اكتظاظ وقته بين العمل الشاق وقضاء حوائج

المنزل المختلفة وضرورة ركونه للراحة جعله غائباً عن أسرته في جل الأوقات، ورغم ذلك، لم يقصر يوماً في حقهم، وبذل كل جهد في سبيل توفير لقمة العيش لهم، وكان عادل يحيط بحبه ورعايته مثل بقية إخوته.

على عكس أمه التي كانت نادراً ما تُبدي حنانها لهم، ولم تكن عواطفها تحمل الكثير من الود تجاه أبنائها، فقد اتُّصفت أحياناً كثيرة بالقسوة، أو ربما كانت تخفي عواطف الأمومة وتُواريها وراء تلك القسوة، لقد عاشت يتيمة وحيدة، ولم تعرف طريقاً للحنان والرعاية الجيدة، كانت كثيراً ما تأخذه برفقتها أينما ذهبت وحلّت وارتحلت، سواء إذا مرضت وتوجهت إلى المستشفى الوحيد في البلدة، أو حين تزور بعض أهلها وأقاربها في شتى المناسبات التي يقيمونها، سواء في الأفراح أو في العزاء والمآتم، وكانت لها عادة لا تتركها أبداً، وهي زيارة المقبرة الواقعة في آخر القرية في المناسبات وأيام الأعياد الدينية، وخاصة حين تُقام أيام زيارة ضريح الولي الصالح كل سنة من أول أيام الخريف، والتي يُطلقون عليها اسم "الزردة". تمتد هذه الزيارة لأسبوع كامل، ويأتيها الزوار من كل أنحاء القرية ومن البلدات المجاورة أيضاً، ويقيمون خلالها الولائم ويذبحون بعض القرابين من الطيور

والمواشي، ويتصدقون بها على المحتاجين والفقراء والمساكين، كما تُقام الكثير من العادات الصوفية حول الضريح، الذي بُني وسط المقبرة في شكل جامع صغير بصومعة، وتتوسطه قبة يُدفن تحتها الولي الصالح في قبر غُطي بالكثير من الأقمشة ذات اللونين الأحمر والأخضر.

كان جميع الذين سمح لهم الشيخ ومساعدوه القائمون على الضريح بتخطي عتبة هذه الصومعة والوصول إلى القبر الذي يتوسط الغرفة تحت القبة يدركون أنهم نالوا خطوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة، وكان عدد كبير منهم، إذا دخلوها، يرتمون بسرعة على قبر الولي الصالح، يقبلونه ويمسحون وجوههم وأذرعهم وكفيهم بتلك الأقمشة التي تغطيه وتُغلف جدران الغرفة أيضاً، ويظلون عاكفين على هذه الحال إلى آخر الزيارة، وكان من بين الزائرين الذين ازدحموا حول الضريح نساء كثيرات، أخذن يبكين حناناً وخشوعاً وحماسة بتأثير تلك اللحظة، واندفعت نساء أخريات يرغبن في تقبيل القماش الذي يغطي القبر من جديد، وراحت بعضهن يرتلن بصوت خافت رتيب بعض التوسلات الممزوجة بالأدعية والمطالب، ثم تقدم الشيخ منهن وباركهن جميعاً، كن يؤمن بيقين راسخ بأن المعجزة ستحدث

وأن مرادهن سيتحقق، فيكثرن من الأدعية وكل ما يتمنينه أمام الضريح، ويطلبن تزكية الولي الصالح لهن في خشوع تام لتحقيق ما في نفوسهن وما أتين من أجله حتماً.

كان أكثر الزائرين، حتى أضخمهم جسماً وأعلاهم مقاماً وأغزرهم علماً، يتقيدون طوال مدة وجودهم في هذا المكان المقدس بالنسبة لهم بأقصى أنواع الأدب والاحترام واللباقة، وكان ذلك يتم بمحبة وإحسان، وتوبة وندامة وتقرب إلى الولي الصالح، طمعاً في أن يغفر الله ذنوبهم ويتجاوز عن خطاياهم، وبدافع التحرق لحل مشكلة نفسية صعبة، أو تجاوز فترة أليمة يمرون بها، وتحقيق بعض أمانيهم، والتبرك بالولي الصالح، هكذا كانت ظنونهم.

وكانت أم عدلان تعتقد ذلك أيضاً، أما ولدها فكان غير مدرك لما يقوم به من أفعال، ولم يكن يؤمن منذ صغره بهذه المعتقدات والعادات، وكثيراً ما استهزأ بها رفقة بقية الأطفال الذين كان يلتقيهم هناك، وكانوا يطفئون الشموع المشتعلة المحيطة بالضريح، ويسرقون الحلويات وبعض علب

الشموع والنقود المعدنية التي كان الزوار يضعونها على القبر وبجانبه كصدقة على روحه الطاهرة.

كان غياب الوالد المستمر عن المنزل، بسبب عمله اليومي المضنى والمتعب، وقضاء حاجيات أسرته المختلفة خلال المساء، قد جعل السطوة والسيطرة بعده تعود إلى الإخوة الكبار، وبالأخص الأكبر بينهم، الذي منحه الوالدان حق التصرف في كل صغيرة وكبيرة، وإرشاد وتنبيه إخوته الأصغر منه سناً، حسب العادات والتقاليد المتوارثة في المنطقة، تلك التقاليد التي تُبجّل الأكبر سناً فالذي يليه، وتجعل قراراتهم في الأسرة سارية المفعول دون أدنى نقاش أو إبداء أي رد فعل من الإخوة الصغار مهما كان، وإلا، عُدّ ذلك في خانة العقوق للوالدين وللكبار، وسوء الأخلاق وقلة التربية للصغار، والخروج عن العادات والتقاليد المتوارثة.

كان الأخ الأكبر، خالد، متعجرفاً ومتكبراً، لا يتصف بالحنان والود تجاه الناس، ولا يحب البشر كثيراً، ويشبه إلى حد كبير أمه من ناحية الطباع، لو حدث أن مكث في غرفة واحدة لمدة يومين رفقة أي شخص آخر، لما استطاع أن يتحمل ذلك، فمتى وجد نفسه قرب إنسان آخر، شعر أن

شخصيته تصطدم بذاته وتجور على حريته، كان قادراً، في مدى يوم واحد، على أن يكره أحسن وأنقى وأتقى إنسان، فيصبح هذا في نظره شخصاً لا يُطاق، فقط لأشياء بسيطة قد يختلف فيها عنه أو لا يحتملها منه، كأن يكون بطيئاً في تناول الطعام على سبيل المثال، أو ألا ينام باكراً، أو يستيقظ قبل موعد استيقاظه، لم يكن ليتحمل حتى نسخة من نفسه لو عاشت برفقته، وكان يشعر بضيق شديد وضجر متواصل من كل من يقترب منه، كان مسيطراً على كل صغيرة وكبيرة في البيت، فالوالدان يستمعان له بحكم أنه وصل إلى مستوى عالٍ، فقد تخرج حديثاً من معهد الأساتذة والمعلمين، وأصبح أستاذاً في الثانوية في مادة اللغة والآداب، وهو لا يزال في بداية العشرينات من عمره، كانا أميين، وكانا يريانه معلماً ومربياً للأجيال وذو شأن كبير، وبمثابة المصباح المتعلم الذي أصبح ينير درب الأسرة بأكملها، وكثيراً ما يفخران بذلك أمام الأقارب والجيران، ولا يردان له طلباً ولا يكسران له كلمة، رغم أنه كان أنانياً إلى النخاع، حتى إنه استولى على غرفة كاملة لوحده، رغم ضيق مسكنهم الذي لا يحوي سوى غرفتين وصالة ومطبخ، وجهّزها بتلفاز أبيض وأسود، ولا يسمح لإخوته بمشاهدته إلا بإذنه

وفي أوقات معينة ولبرامج يختارها بنفسه، بل إنه كان يغلق غرفته عندما يكون خارج المنزل، خشية أن يلمس أحد غيره أشياءه الخاصة، حتى لو كانت والدته نفسها.

كان خالد كثيراً ما يُلحق بالأخوين الأصغر منه، عمار وعدلان، شتى أنواع العقاب على أتفه الأسباب والأخطاء التي يرتكبونها في الشارع أو البيت، كانا يرتعبان بمجرد سماع صوته وهو قادم من الشارع، ولا يستطيعان حتى رفع عينيهما في اتجاه عينيه خوفاً ورهبة منه، بل إنهما كانا يخافان أصدقاءه أيضاً، خشية أن يوشوا بهما ويجعلوهما يتعرضان لعقوبات جمّة، وإذا ما صادفا أحدهم والتقيا به في أحد الأزقة أو الشوارع، كانا يغيران الطريق ويختبئان حتى لا يراهما، ويتواريان عن الأنظار، وحتى لو تعرضا لظلم أو جور من بقية أقرانهما أو من يكبرونهما سناً، كانا يخفيان الأمر عن والديهما وأخويهما الأكبر منهما سناً، لأنهما سيتعرضان لعقوبة لا محالة، بغض النظر عما إذا كانا ظالمين أو مظلومين، وكانا يسمعان منهما أسئلتهما المعروفة دون أن يفهما السبب، قائلين:

"من الذي عرضك لذلك الشخص؟"

"ولماذا ذهبت إلى ذلك المكان؟ "

وكان عدلان وأخوه الذي يكبره مباشرة، عمار، هما من يتعرضان لأشد أنواع السيطرة والهيمنة من الجميع، على عكس الأخ الآخر الهادي الذي يصغر الأكبر، خالد، بثلاث سنوات فقط، فقد كان مستقلاً بذاته، ويتصف بالهدوء التام والرزانة وقلة الكلام، وغيابه الدائم عن شتى المشاهد التي تحدث في المنزل، كان ينأى بنفسه عن كل ما يجري من أحداث، ولا يتدخل في أي شيء، مكتفياً بذاته وهروبه عن الجميع.

أما عمار، فكان في أول أيام العمر قريباً من عدلان بحكم تقاربهما في السن، وكانا في أول سنواتهما متلازمين يلعبان سوياً، لكنه بمجرد أن وطئت قدماه المدرسة، أصبح له أصدقاء وزملاء آخرون، وكان يهرب من عدلان ويطرده عندما يلاحقه بحكم أنه صغير، وهذا ما ترك عدلان وحيداً أغلب الأوقات، حتى بعد دخوله المدرسة، فلم يكسب الكثير من الأصدقاء.

لقد كان خلال طفولته كثير الإفصاح عن نفسه، بل كان كثير الضحك والدعابة مع أقرانه من الأطفال، دون أي شك أو حذر، وبلا أي خجل أو

وجل، كان متهجم الطبع والمزاج، يحب البشر ويثق مباشرة في الناس، ويقبل الكثير من الأشياء دون أن يحكم عليها، حتى إنه أصبح لا يخاف أو يندهش من شيء منذ نعومة أظفاره، كان في نفسه شيء من الاندفاع والقوة، وشيء من حب الظهور والقيادة، وكان يكره السذاجة والاستغفال، وتملؤه العزة والأنفة والكبرياء وحب التألق.

وحين وطئت قدماه المدرسة لأول مرة، كان قد أتم السنة السادسة من عمره، فهو يتذكر جيداً ذلك اليوم الذي اصطحبه فيه والده إلى هناك، وكيف وقف أول مرة على أبواب المدرسة رفقة الكثير من الأطفال في عمره وأوليائهم يمسكون بأيديهم، ويتذكر جيداً عندما حمل مدير المدرسة ورقة وبدأ ينادي بأسماء تلاميذ السنة الأولى بفوجها الاثنين، وعندما سمع اسمه، وأفلت يد والده وتقدم وحيداً نحو صف الفوج دون رهبة أو خوف، على عكس الكثير من الأطفال الذين تمسكوا بقوة بأذرع آبائهم، وأخذوا يبكون ويصرخون خائفين، رافضين التقدم بمفردهم إلى الصف.

وبعد أيام قليلة من بداية السنة الدراسية، ألف الذهاب والعودة وحيداً، فوالده لم يرافقه سوى في اليوم الأول، وسرعان ما اعتاد الذهاب

والعودة بمفرده، ولم يكن من زملائه من يجاوره في السكن حتى يترافقا معاً، فمنزله كان منزوياً قليلاً ناحية الوادي الذي ينبع بين الجبال المحاذية لآخر الحي، ويشقّه إلى نصفين على الطرف الجنوبي للمدينة، ولسوء حظه، لم يُؤتَ موهبة حمل الآخرين على حبّه، أي فن إجبارهم على ذلك، فالقليل فقط هم من يحبونه من تلقاء أنفسهم دون أن يختار هو ذلك، رغم أنه كان من أولئك الأطفال الحازمين الذين لا يجلبون لأنفسهم سخرية زملائهم، بل كان يجلب عداوتهم في كثير من الأحيان، فقد كان يتفق أن يلعب معهم في أوقات الراحة، فيغرق في اللهو واللعب، ويكره الوحدة والانزواء، ورغم ذلك، لم يحبه بقية التلاميذ حباً عظيماً، حتى إنه ظل طوال حياته المدرسية دون رفاق حقيقيين، رغم أنه كان متحمساً كثيراً، وكان يبدو في العادة مرحاً، ولم تكن نفسه هادئة رغم صفائها، كان يرغب دائماً في أن يظهر قيمته العالية وسط أصدقائه ورفاقه، ولعل هذا هو السبب الذي جعله لا يخشى أحداً منذ نعومة أظفاره، ويزهو بشجاعته وجسارته، وكان يحتفظ جيداً بأي ذكرى سيئة تناله أو تلحق به، رغم طيبته وثقته الزائدة بغيره، وكانت من أجمل صفاته التي أغرت زملاءه في المدرسة أنه يمازحهم كثيراً، لا عن رغبة

خبيثة في السخرية، بل من قلبه وبنيته الطيبة، وهذا ما كان يفرحهم كثيراً، هكذا كان شأنه في المدرسة.

كان عدلان، بمجرد عودته من المدرسة، يرمي محفظته عالياً، ثم يخرج مسرعاً ليلتقي بزملائه، كانوا يهرعون معاً إلى الملعب الترابي لكرة القدم، الذي أنشأه شباب الحي على ضفة الوادي، ليلعبوا هناك، وكانت ألعابهم تتنوع بين فصول السنة وأيامها، ففي فصل الخريف، كانوا يلعبون بالكرات الصغيرة والقريصات، وفي الشتاء يصنعون من إذابة بعض دلاء البلاستيك القديمة دبوراً مدوراً يغرسون في داخله مسماراً، ويطلقون عليه "النحلة"، يديرونها بخيط يلفونه حولها، ثم يرسمون دائرتين ويتسابقون على إدخال "نحلة" أحدهم داخل إحدى الدائرتين في شكل فريقين متنافسين، أما في فصل الربيع، فكانوا يتسابقون عند ضفاف الوادي وحواف الجبال لاصطياد الدبابير والنحل والفراشات من فوق أزهار الحشائش التي تنمو هناك، وفي العطلة الصيفية، كانت ألعابهم تتنوع بين التزحلق فوق أجزاء من الدلاء الممزقة على حافة الوادي، والصعود أحياناً إلى الشعاب البعيدة في عمق الجبال لجلب بعض حبات التين التي تنمو في أشجار الكروم البرية

المنتشرة في أعماق الوديان والشعاب، كما كانوا يصطادون القنادس والعصافير بواسطة فخاخ تقليدية يصنعونها بأيديهم.

كانت أيامهم متشابهة إلى حد كبير، ما عدا يوم الجمعة الذي كانوا يخصصونه لمباريات كرة القدم كل مساء، ويوم الثلاثاء حيث كانوا يمكثون، بعد خروجهم من المدرسة، في السوق الأسبوعية المتنوعة. كانت تُقام هذه السوق في الساحة الكبيرة التي تتوسط البلدة، وكانوا يسرقون بعض الفواكه في غفلة من الباعة، ويتناولونها بسرعة دون أن يكتشف أحد أمرهم.

كان المعلم الذي يدرّسهم قد جاء من قرية بعيدة في الجنوب، من أهل الصحراء المعروفين بالأدب والأخلاق والورع والتدين، كان معلماً متوسط السن، على أعتاب الخمسينيات، وقد أظهر لهم عاطفته من أول يوم وطئت فيه أقدام تلاميذه القسم، فقد كان يحضر كيساً من الحلوى كل صباح، ويضع قطعة منها على طاولة كل تلميذ، كانت الفرحة تغمر قلوب الصغار بهذه اللفتة البسيطة واهتمام المعلم بهم، وكانوا يحترمونه احتراماً شديداً، ففي تلك الفترة، كان للمعلم مكانة عالية، وكان التلاميذ يخافون غضبه

ويهابون مكانته مهابة شديدة، حتى إنهم لو مروا بشوارع وكان معلمهم واقفاً فيها، ليختبئوا سريعاً أو غيّروا طريقهم لاتجاه آخر حتى لا يراهم، احتراماً وإجلالاً وتبجيلاً ومهابة منه، وقد استمر في تدريسهم خلال كل المرحلة الابتدائية لست سنوات كاملة.

وأُضيفت لهم معلمة اللغة الفرنسية عند وصولهم للصف الرابع، كانت لا تزال في مقتبل العمر، في بداية العشرينيات من عمرها، شابة جميلة بيضاء البشرة كالثلج، وجهها بيضاوي مستدير كأنه القمر، وعيناها واسعتان بنيتان براقتان ليس فيهما شيء، كانت معلمة جميلة الشكل، أنيقة المظهر، ولا تتكلم إلا باللغة الفرنسية التي تدرسها، ونادراً ما تنطق ببعض الكلمات بالعربية الدارجة، مبعثرة وغير مفهومة، عند الضرورة إذا استعصى على مستمعها فهمها، كأنها باريسية المولد، كان الجميع يحبونها ويتوددون إليها، فهي سريعة الولوج إلى القلوب، ويتعلق بها بسرعة كل من يراها أو يكون قريباً منها، فقد أحبها تلاميذها وتعلقوا بها من الوهلة الأولى، وكانوا يتسابقون في حل الواجبات المنزلية ليتلقوا الثناء والشكر من

معلمتهم المحبوبة، رغم كرههم للغة الفرنسية، إلا أنهم أحبوها لأجل حب معلمتهم الجميلة.

كان عدلان متفوقاً في دراسته، وينافس أنجب التلاميذ على المراتب الثلاث الأولى دوماً، وقد اختاره المعلم ليكون أحد أبرز الممثلين في الأعمال المسرحية التي كانت تُعد وتُحضر من الفرق المدرسية، وتُعرض في شتى المناسبات الوطنية والدينية والعلمية وختام السنوات الدراسية، حيث برع في تمثيل شتى الأدوار التي أُسندت إليه، لكنه، على العكس من ذلك، لم يكن متفوقاً أبداً في الألعاب الرياضية، حتى إنه لم يختره المعلم أبداً في فريق القسم أو المدرسة خلال كل تلك السنوات الدراسية التي قضاها في المرحلة الابتدائية، فقد كان ضعيف الجسم، وكانت بعض الأمراض تنهش جسمه الصغير، فقد أجرى عملية جراحية وهو في الصف الرابع، وانتُزعت منه الزائدة الدودية في آخر لحظة، والتي كادت أن تودي بحياته.

تلك هي مرحلة الطفولة التي عاشها بكل مرح وفرح، رغم ما لازمها من بؤس وفقر وشقاء، إلا أنها كانت مليئة بالأحداث المتناقضة، كانت في بداية الثمانينيات، أواخر المرحلة الاشتراكية التي كانت تعيشها البلاد، حيث كانت

مؤسسات الدولة تسيطر على كل المجالات، فليس هناك سوى المؤسسات الوطنية التي تسيطر على مختلف الصناعات، والشركات الوطنية التي تتكفل بمفردها بجل عمليات الاستيراد والتصدير على اختلافها، وهي التي تختص لوحدها بتوزيع كل المنتجات والسلع على بقية التجار الخواص، وتموين السوق المحلية بكل الحاجيات، فكان الناس تقريباً يتشابهون في المظاهر العامة، من اللباس وأثاث المنازل والبناء ووسائل النقل، وجل ما يمتلكه المواطنون، فلم تكن هناك فروق كثيرة، لقلة التنوع والمنافسة واحتكار الدولة وسيطرتها على كل القطاعات.

اجتاز عدلان المرحلة الابتدائية التي دامت ست سنوات كاملة بتفوق كبير، ونال خلالها مرتبة الشرف، كُرّم في حفل آخر السنة بشهادة شرفية ضمن المتفوقين الأوائل للابتدائية، ثم وُجه إلى المتوسطة التي تقع على بعد ثلاثة أميال من منزله، تزامنت تلك الفترة مع أزمة عالمية رافقها ركود اقتصادي عالمي، أثر بشكل واضح على اقتصاد البلاد، الذي كان يعتمد بنسبة عظمى على تصدير المحروقات، فقد تهاوت أسعارها في البورصات العالمية إلى الحضيض، مما تسبب في أزمة داخل البلاد، حيث اختل الميزان

التجاري، وقررت الدولة سلك طريق التقشف في الاستيراد، فتسبب ذلك في ندرة كبيرة لمختلف السلع والبضائع، وسادت طوابير طويلة أمام أسواق الفلاح والأروقة التابعة للدولة، التي كانت توزع مختلف السلع والحاجيات الأساسية للمواطنين.

فكان عدلان، في كثير من الأحيان، وخاصة أيام العطل الأسبوعية أو الفصلية، توقظه والدته باكراً رفقة أخيه عمار، وترسلهما للبحث عن بعض المواد الغذائية المفقودة، وكانا ينضمان إلى تلك الطوابير الطويلة باكراً، ويبقيان لساعات متتالية، عسى أن يظفرا بكمية منها تسد رمق أفراد العائلة لبضعة أيام، هذه الكمية كانت تحددها الدولة بعدد أفراد الأسرة، وكان العمال الموزعون لتلك المواد لا يسلمونها إلا بعد الاطلاع على الدفتر العائلي وحساب عدد أفراد الأسرة بأنفسهم، حيث يحصل كل فرد على كيلوغرامين من الحبوب، أو لترين من المواد السائلة، أو علبتين من المعلبات لكل مادة طيلة الشهر.

لقد كانت أياماً عصيبة دامت لثلاث سنوات كاملة، قبل أن ترتفع أسعار المحروقات من جديد إثر أزمة حرب عالمية وقعت في الشرق الأوسط، فانتعشت من خلالها خزينة الدولة، وبدأت الأوضاع الاقتصادية تتغير تدريجياً بعد أحداث أكتوبر المجيدة، التي خرجت فيها ألوف الجماهير في مختلف مدن وقرى البلاد تطالب بخفض الأسعار والعدالة الاجتماعية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مظاهرات عارمة تطالب بإصلاح الأوضاع السياسية والحرية والديمقراطية أيضاً، دامت بضعة أشهر من الفَرّ والكَرّ بين المتظاهرين وقوات مكافحة الشغب، وفشلت السلطات الأمنية في محاولة إخمادها بشتى الطرق، وسقط خلالها العشرات من الضحايا جراء التصادمات اليومية بين تلك الجماهير وقوات مكافحة الشغب، واعتُقل وسُجن الكثير من المتظاهرين والمحتجين، لكنها أثمرت في الأخير عن خروج رئيس الدولة، وإعلانه انتهاء حكم الحزب الواحد المتوارث عن الاستقلال، وفتح الساحة السياسية على مصراعيها لمختلف الجمعيات والمنظمات والأحزاب لممارسة أعمالها، وإصدار عفو شامل وإطلاق سراح المعتقلين والمسجونين جميعاً.

دخلت البلاد في مرحلة انتقالية، وأصبح للإعلام حرية مطلقة في نقل الواقع للجماهير، ونقد الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وزاد عدد الجرائد والمجلات المعارضة، وقد سنّ البرلمان دستوراً جديداً يكفل الحريات ويضمن المساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات، أُجريت خلال هذه المرحلة الانتقالية، التي امتدت لحوالي ثلاث سنوات كاملة، انتخابات بلدية وبرلمانية مسبقة، شاركت فيها جل الأحزاب السياسية الجديدة منها والقديمة التي كانت محظورة أيضاً، وعادت للساحة من جديد، وفازت المعارضة التي تحمل شعارات دينية، تُدغدغ بها مشاعر المواطنين وتلعب على الأوتار الحساسة لعواطفهم، بأغلب المقاعد في المجالس البلدية والولائية والبرلمانية.

شهدت تلك الفترة انفتاحًا اقتصاديًا وتغييرات في القوانين، حيث بدأت الدولة تفتح أسواقها على التجارة الخارجية، ونتيجة لذلك، نشأت مؤسسات وشركات خاصة للاستيراد والتصدير، مما أدى إلى انتعاش الأسواق الداخلية التي أصبحت تعج بمختلف أنواع السلع والبضائع المستوردة، وفي الوقت نفسه، رافق ذلك ازدهارًا في شتى أنواع التهريب عبر

الموانئ والمطارات والحدود البرية، حيث استغل العديد من أصحاب رؤوس الأموال وجود ثغرات قانونية، وقلة خبرة المؤسسات الرقابية والإدارية في الدولة بهذا المجال الجديد، إضافة إلى فساد بعض الأجهزة الإدارية، لتحقيق الثراء الفاحش بشتى الطرق الممكنة خلال هذه الفترة من التحولات السياسية والاقتصادية التي مرت بها البلاد.

وظهرت الأسواق السوداء في بعض البلديات الحدودية، لتصبح محجًا لسكان الولايات الداخلية وحتى الشمالية الساحلية، الذين كانوا يقصدونها لاقتناء السلع والبضائع المهربة ذات الجودة العالية من ماركات عالمية مشهورة ومتنوعة، وبأسعار تناسب القدرة الشرائية للمواطنين، واشتهر سوق متنوع في البلدية التي يقطنها عدلان، وأصبح أكبر سوق على مستوى البلاد، تطور هذا السوق تدريجيًا مع التغيرات التي طرأت على القوانين، والتي ساهمت في استمرار الانفتاح الاقتصادي وحرية التجارة في البلاد، ليصبح السوق التجاري الأكبر وطنيًا، ضم هذا السوق مئات شركات التصدير والاستيراد التي أسسها التجار والمهربون بعدما نمت تجارتهم واكتسبوا زبائن كثر، فأضفوا على أنشطتهم الصفة القانونية من خلال

تسجيل شركاتهم في السجلات التجارية، لكن في الحقيقة، استمر التهريب عبر طرق أخرى مغلفة بالسجلات التجارية والفواتير المضخمة، بتواطؤ من بعض أعوان الجمارك المرتشين، حيث كان يتم أيضًا تحويل العملة الصعبة وتهريبها إلى خارج البلاد.

أثرت تلك الصورة القاتمة بشكل كبير على تلاميذ المدارس والثانويات، فمنهم من هجر مقاعد الدراسة مبكرًا، متجهًا للعمل في الأسواق، كانوا يدركون أن الدروس التي يتلقونها في المدرسة لن تفيدهم في حياتهم اليومية، ولن تؤمن لهم لقمة العيش، ولن تعلمهم كيفية تحقيق الأرباح المادية التي كانوا في أمسّ الحاجة إليها آنذاك، ومنهم من بقي في مقعده الدراسي، ليس إلا خوفًا من عقوبة أهله وردة فعلهم، دون أن يبدي أي اهتمام بالدراسة، فقد كان قلبه وعقله معلقين بأمور بعيدة كل البعد عن التعليم وحلم التخرج.

وهذا ما حدث مع عدلان وصديقه إسماعيل، اللذين تعارفا منذ اليوم الأول لدخولهما المدرسة المتوسطة، وأصبحا صديقين حميمين منذ اللحظة

الأولى، كان كلاهما من أنجب التلاميذ خلال المرحلة الابتدائية، لكنهما تأثرا في المرحلة المتوسطة بما طرأ من تغييرات في البلاد، ففقدا الاهتمام بالتعليم تمامًا، وأصبحا من التلاميذ المشاغبين داخل الصف، وكثيرًا ما تعرضا لعقوبات من أساتذتهم بسبب ذلك، ورغم انحرافهما بعض الشيء عن مسار الدراسة، فقد أنقذهما ذكاؤهما من الرسوب المبكر، وساعدهما على الحفاظ على علامات متوسطة، بالرغم من عدم مراجعتهما للدروس عند عودتهما إلى المنزل أبدًا، ومع ذلك، تراجعت نتائجهما تدريجيًا، دون أن يفقدا كل شيء.

كبر عدلان وأصبح يهتم بأدق تفاصيل مظهره، رغم أنه لم يكن يملك المال الكثير، وتحول إلى شاب يافع، لكنه ظل متوسط البنية، إذ عانى من المرض منذ صغره، ولم ينمو طوله كثيرًا، فبقي متوسط القامة يميل إلى القصر مقارنة بأقرانه، الذين كان أغلبهم يتجاوزونه بضعة سنتيمترات، لم يكن ذلك يشكل عقدة بالنسبة له عندما يقف وسط مجموعة من زملائه، رغم تعرضه للتنمر والاستهزاء من بعضهم في كثير من الأحيان، كانت تبدو على ملامحه آثار المرض، وتظهر على قسمات وجهه علامات خفية، كما

كانت نظرته لا تعكس حالته النفسية تمامًا، رغم أنها بدت دائمًا حازمة وواثقة، كان من الصعب على أي شخص أن يتبين ما يدور في ذهنه، فهو غضوب وبشوش في آنٍ واحد، مشوش الذهن ومندفع، لكنه طيب القلب وصبور، ذكي ومقتنع بآرائه، وكريم بطبعه.

على عكس عدلان، كان إسماعيل شابًا في نفس عمره تقريبًا، أشقر طويل القامة، بهي الطلة، يتمتع بعينين خضراوين وشعر أصفر يميل إلى الحمرة في بعض خصلاته، يتدلى على جبينه، كان له أنف طويل معقوف في منتصفه، نتيجة كسر تعرض له إثر سقوطه في الحمام وهو في السابعة من عمره، نشأ إسماعيل في عائلة مثقفة ذات مكانة مرموقة في البلدة؛ فوالده متقاعد من الجيش، ووالدته كانت قابلة في المستشفى وتقاعدت أيضًا، وأخوه الأكبر طبيب معروف في المدينة، ولديه ثلاث أخوات وأخ آخر يكبره بثلاث سنوات يمتهن التجارة الحرة بجميع أشكالها.

وكان في أوقات فراغهما، بدلاً من التوجه إلى مكتبة المتوسطة لمراجعة الدروس، كان عدلان وإسماعيل يتجهان إلى سوق البلدة برفقة مجموعات أخرى من التلاميذ حيث يستمتعون بالتجول والتسكع في الأسواق، بل إن

بعض التلاميذ اتخذوا السرقة مهنة، وكثيرًا ما كان يُقبض على أحدهم متلبسًا بسرقة بعض الأغراض، لكن التجار كانوا يطلقون سراحه سريعًا دون تسليمه إلى مركز الشرطة، فأهل البلدة يتميزون بالطيبة والرحمة والرأفة، ويدركون أن القانون لا يحاسب القاصرين من المراهقين والأطفال الصغار، فضلاً عن عطفهم على صغر سنهم ورحمتهم بهم.

من هنا بدأ انحراف عدلان عن الطريق السوي، في المنزل، كان يعاني من تسلط إخوته الأكبر منه، ومن قلة اهتمام والديه به، واستصغاره في معظم المواقف وعدم الاعتماد عليه، مما حرمَه من بناء الثقة الكافية بنفسه منذ الصغر، وفي المدرسة، لم يجد سوى صحبة سيئة تشجعه على الانغماس في الشارع، ضمن مجتمع تسيره الظروف الراهنة وتتحكم فيه الأوضاع السياسية والاقتصادية للبلاد، ولا يعزز سوى الانحراف والرذيلة، فوجد ضالته في اللهو والتسكع في الشوارع بدلاً من الاهتمام بدروسه وما ينفعه في حياته، بدأت نتائجه الدراسية تتراجع سنة بعد أخرى، حتى اجتاز السنة التاسعة من التعليم المتوسط بصعوبة بالغة، وهو الذي كان متفوقًا في المراحل الأولى من الدراسة، ثم انتقل إلى المرحلة الثانوية، التي تُعد أخطر

من سابقاتها، حيث يُعتبر طلابها في مرحلة المراهقة رجالاً بعقول أطفال، وبدلاً من العودة إلى الطريق السوي، ازداد انحرافًا.

كذلك اجتاز إسماعيل المرحلة المتوسطة، ووُجّه إلى نفس قسم عدلان في الثانوية، وكأن القدر قد كتب لهما أن يكملا هذه المرحلة معًا، بدا وكأنهما متفقان على السير بنفس العقلية نحو الانحراف وهجر مقاعد الدراسة، كان لإسماعيل أخ أكبر منه يمزج بين التجارة والتهريب، وكثيرًا ما كان يصطحبه معه في أيام العطل لمساعدته في حمل البضائع وتفريغها في المحل الذي استأجره في سوق المدينة، وأحيانًا، كان يتركه في المحل ليتعلم أصول التجارة ويساعده في البيع، مما يتيح له أخذ قسط من الراحة، خاصة إذا قضى تلك الليلة في نقل السلع والبضائع من المناطق الحدودية إلى المخازن في المدينة، وكان إسماعيل يأخذ عدلان معه ليؤنسه ويساعده في ذلك، وكثيرًا ما كان يدفع له بعض النقود نظير مساعدته.

كان عدلان على قناعة تامة بأن الوضع في البلاد لا يشجع على طلب العلم بأي شكل من الأشكال، فقد تحول المجتمع إلى مجتمع يهتم بالمظاهر

فقط، لا يعير المتعلمين والمتفوقين أي اعتبار، بل يمجد التجار والأغنياء، ويميل إلى المهربين وأصحاب الأموال الذين تحولوا إلى كبار التجار والمستوردين ورجال الأعمال، ليصبحوا قدوة وأعيانًا تملك زمام الأمور في البلاد.

وفي أحد الأيام، بينما كانا جالسين في محل أخ إسماعيل بالسوق، وهو محل مخصص لبيع رزم الملابس المستعملة التي كان يهربها عبر الحدود القريبة من القرية، دار بين الصديقين حوار عن المجتمع ومستقبلهما، كان إسماعيل يتململ في مكانه على المكتب الخشبي الذي يتوسط المحل، محاطًا برزم الملابس المستعملة المرتبة بعناية خلفه وعلى جانبيه، كأنها جدار من الطوب المرصوص، قال وهو يعبّر عن رأيه: "العلم لم يعد يجدي نفعًا في هذه البلاد، هل رأيت المتخرجين من الجامعات؟ أغلبهم لم يجدوا عملًا يتناسب مع اختصاصهم ومستواهم الدراسي، إلا قلة نادرة وظفت في المنجم بفضل آبائهم الذين يعملون هناك كإطارات وساعدوهم بالمحسوبية، أو من ذهبوا إلى الصحراء للعمل بعقود مؤقتة بأجور زهيدة، أو بعض

الفتيات اللواتي حصلن على وظائف في الإدارات لأنها تفضل توظيف الجميلات فقط".

جلس عدلان على إحدى الرزم الكبيرة إلى يسار المكتب الخشبي، يحك رأسه كأنه يفكر في نفس الكلام، ثم أجاب: "صحيح، ابن عمي أنور مثال واضح، تخرج منذ ثلاث سنوات كاملة ولا يزال عاطلاً عن العمل في اختصاصه، طرق كل الأبواب وشارك في كل المسابقات المعلنة، لكن جميع الطرق أغلقت في وجهه، رغم مهارته وذكائه ومستواه العالي، ظل محاصرًا بين الجدران دون أن يجد سبيلاً إلى وظيفة".

نهض إسماعيل من مكانه واتجه نحو مدخل الباب، ثم استدار إلى صديقه مشيرًا بيده يمينًا وشمالاً كأنه يؤكد كلامه: "نعم، لا يغادر ذلك الجدار أمام منزله منذ سنوات، هو من عائلة بسيطة لا أحد يهتم بأمره، لو كان من أسرة مرموقة أو ذات نفوذ، لكان قد حصل على منصب منذ أول يوم تخرج فيه ".

أخذ عدلان يقرع الأرض بقدميه المتدليتين من فوق الرزمة التي اتخذها مقعدًا، مؤيدًا كل كلمة يقولها صديقه دون معارضة، ثم أضاف: "لو كان فتاة جميلة الوجه ومعتدلة القوام، لوجد وظيفة في إحدى الإدارات، ان أغلب المسؤولين يفضلون الفتيات الجميلات ويرفضون الشباب مهما بلغ مستواهم أو تفانيهم في العمل".

قطب إسماعيل حاجبيه ورمق زميله بنظرة ثاقبة تعكس الثقة والإصرار على ما يجول في ذهنه، ثم قال: "لذلك كرهت الدراسة، أعرف مسبقًا أنها لن تساعدني في كسب رزقي مستقبلاً، انظر مثلاً، لو قارنا بين ابن عمك أنور وأخي سليم: كلاهما من نفس الدفعة وفي نفس العمر، ودرسا معًا، أنور اجتاز شهادة الباكالوريا بتفوق كبير، ودرس سنوات طويلة في الجامعة، لكنه اليوم عاطل منذ ثلاث سنوات، حتى إنه يضطر أحيانًا للعمل كمساعد بناء مع جارنا عمي النوي ليؤمن مصروف يومه، أما أخي سليم، فقد ترك الدراسة بعد رسوبه في الباكالوريا، واتجه إلى التجارة بطاولة صغيرة لبيع السلع المهربة، في وقت قصير، تضاعف رأس ماله، وافتتح محلًا تجاريًا في السوق، ثم اشترى عربة ينقل بها البضائع من الحدود إلى محله، والآن هو

شريك في تجارة كبيرة مع أحد التجار، واشترى شقة العام الماضي، ويستعد للزواج هذا الصيف".

كان عدلان مقتنعًا تمامًا بأن الوضع في البلاد لا يشجع على طلب العلم بأي حال من الأحوال، فقد أصبح المجتمع يهتم بالمظاهر فقط، دون أن يولي المتعلمين والمتفوقين أي مكانة، بل يمجد التجار والأغنياء، وينحاز إلى المهربين وأصحاب الأموال الذين تحولوا إلى كبار التجار والمستوردين ورجال الأعمال، ليصبحوا قدوة وأعيانًا يمسكون بزمام الأمور في البلاد.

بدأ عدلان يميل إلى التجارة ويفكر في التخلي عن الدراسة تدريجيًا، حالمًا بأن يصبح رجل أعمال وصاحب مال ونفوذ، أصبح قليل التركيز والانتباه أثناء الدروس، لا يستمع إلى جملة واحدة مما يشرحه الأساتذة في الصف، وكثيرًا ما كان يهرب مع إسماعيل من الثانوية، متغيبين عن الدراسة أحيانًا لأيام متتالية، ولحسن حظهما، اجتازا السنتين الأولى والثانية من التعليم الثانوي بصعوبة كبيرة، لكن السنة الثالثة كانت مختلفة تمامًا عما اعتاداه؛ إنها سنة الحسم في مسارهما الدراسي، التي تُختتم بمسابقة الباكالوريا، تلك

الشهادة التي تُعد بمثابة تأشيرة عبور إلى التعليم الجامعي، وتحدد مستقبل الطالب، أو تؤدي به إلى التعثر والتوجه نحو الحياة العملية أو البطالة.

ورغم اكتسابه بعض الأصدقاء خلال المراحل الدراسية المختلفة، إلا أنهم كانوا مجرد زملاء مؤقتين لمرحلة معينة، ينقطع الارتباط بهم بمجرد انتهائها، ليعود وحيدًا كعادته، كان إسماعيل الصديق الوحيد الذي اقترب منه حقًا، ملازمًا إياه في المرحلتين المتوسطة والثانوية، وفي أيام العطل المدرسية، كان إسماعيل يأتي إلى منزله ويأخذه معه إلى محل أخيه في السوق، ليؤنسه ويساعده في حراسة المحل من السرقة، وفي البيع والتسويق أحيانًا، وفي بعض الأوقات، كان أخوه يتركه في المحل إذا انشغل بأمور أخرى، ويكافئه ببعض النقود عندما يبيع كميات كبيرة، وبعد حصول إسماعيل على رخصة القيادة، أصبحت العائلة تعتمد عليه في قضاء معظم حاجياتها، فوالده شاخ وكبر، وإخوته المنشغلون بأعمالهم اليومية لن يتمكنوا من التنقل بعيدًا عن المدينة، كان إسماعيل ملاذهم الوحيد، يقضي حوائجهم ومشتريات عائلاتهم دون تذمر، مما جعله محل ثقة الجميع، وكلما أُرسل إلى مكان بعيد، كان يصطحب عدلان ليؤنسه،

فيضربان عصفورين بحجر واحد: قضاء حاجيات عائلة إسماعيل، والاستمتاع بالسفر لكسر روتين البلدة الممل، كان ذلك يسعد عدلان كثيرًا، إذ يهرب من حياته البائسة في المنزل ومن وحدته الملازمة له.

رسب عدلان وإسماعيل في نيل شهادة الباكالوريا، فلم يهتما بالدراسة أبدًا، وكثر تغيبهما وتفكيرهما في دخول عالم التجارة بعد ترك الدراسة، واضطرا لإعادة السنة امتثالاً لأوامر عائلتيهما، لكنهما استمرا على نفس النهج السابق، بل ازدادا سوءًا وبُعدًا عن الاجتهاد، وكأنهما أعادا السنة خوفًا من أهليهما فقط، ورسبا مجددًا، ليجدا نفسيهما مضطرين لخوض الحياة العملية.

وجد إسماعيل ملاذًا آمنًا في محل أخيه سليم، حيث عمل معه براتب ثابت، وأصبح مساعده الأول وركيزته الأساسية في تجارته، وتحول إلى العمود الفقري لعائلته بأكملها، بين عمله في المحل وقضاء حاجيات أسرته وأسر إخوته المتزوجين وأصهاره، وامتلأ وقته، ولم يعد يلتقي عدلان كثيرًا

إلا في مناسبات نادرة عندما تتاح له الفرصة، أو عندما يُرسل في سفر مفاجئ فيأخذه معه كعادته ليؤنسه.

وجد عدلان نفسه بطالًا في مقتبل العمر، فقد بلغ العشرين لتوه، وهي زهرة الشباب التي يُفترض أن يكون فيها الشاب في أوج قوته وعنفوانه، لكن للأسف، كونه من عائلة بسيطة منعزلة عن بقية الأهل - القليلين والبسطاء أيضًا - لم تُتح له أي فرصة عمل جديرة بالذكر، كان يذهب أحيانًا إلى السوق، يتجول بمفرده، ويمر بمحل أخ إسماعيل ليقضي هناك بضع دقائق، فإذا صادف وجود سليم، صاحب المحل، أو أحد أفراد عائلته، شعر بضيق وثقل في نفسه، فيغادر فورًا متواريًا بهدوء وخفة عن الأنظار، عائدًا إلى البيت، هناك، كان يجلس على ذلك الحجر المنتصب في الزاوية اليمنى لآخر المنزل، ساعات طويلة، يفكر في مصيره ومستقبله الذي اسود أمام عينيه، باحثًا عن سبيل لدخول العالم الجميل الذي حلم به منذ الصغر.

أصبح الفراغ الرهيب يقتل طموحه ويغتال شبابه يومًا بعد يوم، لا أحد في البيت يهتم لأمره، ولا أحد من الخارج يسأل عن حاله، فما دام فقيرًا من عائلة بسيطة، لم يكن أحد يلتفت إليه، حتى أقرب الناس من عائلته، والده، عامل يومي، بالكاد يسد رمق أسرته، أما أخوه الأكبر خالد، رغم عمله كأستاذ براتب ثابت، فلم يكن يقدم أي مساعدة لوالده للتغلب على مصاريف العائلة التي أثقلت كاهله، كان أنانيًا، لا يهتم إلا بنفسه، ورغم تدخل والدتهم مرات عديدة، طالبة منه أن يستلف مبلغًا من المال لأخويه عدلان وعمار لإنشاء طاولة تجارية بسيطة في السوق اليومي كما يفعل كثير من شباب القرية، الا انه رفض بحجة عدم امتلاكه المال، رغم أن له حسابًا في أحد البنوك يخبئ فيه ما يزيد عن حاجته.

أما أخوه عمار، فقد استُدعي للانضمام إلى وحدات الجيش لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية لمدة سنتين، أُرسل إلى ثكنة في منطقة جبلية وعرة وخطيرة، كانت خلال الثورة التحريرية أحد المعاقل الرئيسية لجيش التحرير الوطني، الذي قاد ثورة منتصرة لنيل الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي الذي دام أكثر من قرن وثلث قرن، توجت تلك الثورة بعد سبع سنوات

ونصف بالاستقلال التام، وأصبحت المنطقة لاحقًا معلمًا تاريخيًا ترمز إلى الكفاح المسلح الذي قاده جيش التحرير الوطني الشعبي، وكان معظم الشباب الذين يؤدون الخدمة الوطنية يمرون بها لزرع الروح الوطنية فيهم، وليدركوا بأنفسهم عظمة تلك الثورة ويقدسوها، كان عمار يمكث هناك طويلًا، ولا يعود إلا في الأعياد الدينية وبعض المناسبات الوطنية لبضعة أيام فقط.

وأما أخوه الهادي، فقد أكمل دراسته في معهد شبه طبي وحصل لتوه على عمل كممرض في مستشفى القرية، لكنه، مثله مثل خالد، لم يكن يهتم بأمر عائلته، منشغلًا بنفسه فقط، سائرًا على خطى أخيه الأكبر، كان كتومًا وغامضًا، لا أحد يعرف أسراره أو معتقداته أو ما يدور في ذهنه أصلًا. بدأ الإحباط يتسلل إلى عروق عدلان، وفقد ثقته بنفسه تدريجيًا، لم يكن يملك مؤهلات علمية عليا، ولا حتى تكوينًا مهنيًا يمكّنه من إيجاد عمل يسد حاجته، يملأ فراغه، ويفرّغ فيه طاقته الشبابية المتأججة التي كادت تنفجر، وهي في أوج قوتها وعطائها، ورغم شح عروض العمل وقلتها، كانت مكاتب التشغيل التي أنشأتها الدولة لهذا الغرض لا تؤدي مهامها بأمانة،

كان يديرها موظفون فاسدون يتسترون على المناصب التي ترد إليهم من الشركات والمؤسسات العامة، فيقتسمونها مع مسيري و موظفي تلك المؤسسات فيما بينهم، ويوظفون فيها أقرباءهم ومعارفهم ومن يدفعون الرشاوى والعمولات، ولا يعلنون إلا عن بعض المناصب القليلة جدًا والغير مهمة، التي تقدمها بعض المؤسسات الخاصة أو العامة الثانوية، بعقود مؤقتة، وذلك فقط لذر الرماد في العيون، وللتغطية على ما يجري تحت الطاولة وخلف الأبواب المغلقة، ولتهدئة طالبي الشغل الذين يتقدمون بالشكاوى والطعون إلى المسؤولين.

عانى عدلان من فراغ رهيب في تلك البلدة المعزولة، التي تفتقر إلى أدنى مقومات تلبية احتياجات الشباب لسد فراغهم وممارسة هواياتهم وتطويرها، ولم تكن القرية تمتلك دارًا للثقافة أو مسرحًا يمكن لعدلان أن يمارس فيه هوايته المفضلة، التمثيل، ولم تكن هناك فرق مسرحية تُذكر، وأهل القرية لم يكونوا يهتمون بأي نوع من الفنون، معتبرين ذلك تهريجًا ومضيعة للوقت، حتى مكتبة عامة لم تكن موجودة، ولا كان أهلها يعيرون العلم والتعليم أي اهتمام، ورغم استفادة القرية منذ سنوات قليلة من دار

للشباب، لكنها لم تكن تحمل من نشاطات الشباب إلا الاسم، وبُنيت في أطراف المدينة، ولم تُجهز إلا ببعض الآلات الموسيقية التي كان المدير يخبئها في قاعة منزوية بإحكام، رافضًا إتاحة الفرصة للشباب لاستخدامها أو التدرب عليها، بحجة الخوف من تلفها وغياب نادٍ شبابي موسيقي مؤهل لتشغيلها، وفي وسط قاعتها الفسيحة، نُصبت طاولة لتنس الطاولة، وأُضيفت تجهيزات لمقهى شبابي، لكن المدير أجّره لأحد الأفراد الذي حوله إلى مقهى عادي كمقاهي الشوارع، ولم يكن يوفر للشباب الذين يرتادونه سوى ألعاب الورق وأحجار الدومينو، والقهوة والشاي وبعض المشروبات الغازية، ولم يكن لهذا النادي من برامج شبابية سوى ما كُتب على الملصقات والمخططات المعلقة بلوحة الإعلانات عند مدخله، التي غطاها غبار السنين وعششت تحتها وجوانبها العناكب.

كان قلب عدلان مفعمًا بالمحبة والخير، مندفعًا في تصرفاته، ينطق بكل ما يجول في خاطره، أو يخفق في قلبه، أو يدور في عقله، كان يحب الخير لإخوته وأهله، بل ولأصدقائه وجيرانه وكل من يعرفهم، وهذا ما جعله ناصحًا أمينًا، ينبه كل مخطئ أو من يرى أنه في خطر محدق، لا يبخل

بالنصيحة والإرشاد متى رأى في ذلك مصلحة لمن حوله، وظن أن هذا سيجلب له محبة الآخرين ويكسبه مكانة بينهم، لكنه لم يكن يعلم أنه بذلك يجني على نفسه، فإخوته اعتادوا السطوة وحب السيطرة، ووالداه ألفا استشارة الأكبر ومنحه مساحة لاتخاذ القرارات، معتبرين ذلك نظامًا عائليًا يتماشى مع الدين والعادات والتقاليد المتوارثة، لكنهم رأوا في تصرفات عدلان تمردًا على سلطتهم، فاستهزؤوا به، وكثيرًا ما وبخوه أمام الملأ، أما أصدقاؤه، فرأوا أنفسهم أفضل منه، واعتبروا نصائحه تخريفًا، بدافع الحسد والغيرة والحقد، خائفين أن يصبح له مكانة تتجاوزهم، وكلما نصح أحدهم أو صحح له خطأ أو قدم فكرة، أخذوا ما قدمه، ونسبوه لأنفسهم بعد تحريفه للتضليل، ثم استهزؤوا به واحتقروا ما قدم, كان ذلك يحز في نفسه، يكسر خاطره، يدمي قلبه، يشل عقله، ويحطم معنوياته، فيقرر ألا يساعد أحدًا بعد ذلك، لكنه سرعان ما ينسى ويعود لنفس الفعل مرات عديدة، إذ تدفعه طيبة قلبه دفعًا ليتبع ضميره الإنساني الحي، رغم أن كل مرة تُكسر فيها نفسه، ويتحطم قلبه، وتُجرح روحه.

تزوج أخوه الأكبر خالد وانفصل عن العائلة، متخذًا مسكنًا في عاصمة الولاية، بعدما تعرف على سيدة، خطبها بسرعة، وأقام حفل زفاف في نفس السنة، وانتقل بعدها مباشرة مع زوجته بعد تحويل عمله، للعيش هناك، وفي عامه الأول رزق بطفلة بهية الطلة، ثم ولد بعدها، واستقرت حياته هناك، ولم يعد يزور بيت العائلة إلا في العطل الفصلية والمناسبات الرسمية أو الأعياد الدينية والوطنية، ورغم ذلك، ظل الوالدان يكنان له الاحترام، ويبجلانه عن بقية إخوته، ويستشيرانه في كل صغيرة وكبيرة، ويعملان بنصائحه في كثير من الأحيان.

ثم تبعه أخوه الهادي بعد سنوات قليلة، رغم تأخر زواجه لعدم عثوره على امرأة تناسبه، بضع سنوات، لكنه أخيرًا وجد زوجة عاملة، فبنى معها عش الزوجية، وأقام عرسًا بسيطًا لم يدعُ إليه معظم أهله وأصدقائه، وسكن في نفس المدينة، لكنه، على عكس خالد، نادرًا ما كان يزور منزل العائلة، ولم يتدخل في شؤونها أصلًا.

لم يبقَ في المنزل العائلي مع الوالدين سوى عدلان وأخته الصغرى، بعد زواج أخته التي تكبره، التي التحقت بأختها الكبرى المتزوجة منذ سنوات، وعاد أخوه عمار بعد انتهاء خدمته العسكرية، ليظل بطالًا لسنتين كاملتين، ثم حصل على عمل كعون أمن في مؤسسة وطنية، بضربة حظ، ورغم ذلك، لم ينفصل إخوته واخواته الأكبر منه عن والديهم تمامًا، فكانوا دائمي الزيارات والاتصال، ولا يكفون عن التدخل وحشر أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة ببيت الوالدين، لم يكونوا يريدون لعدلان أن يكون له رأي في المنزل، فحرضوا الوالدين ضده بكل الطرق ليفسدوا أي ثقة بينهم، وكان عدلان غافلًا عما يفعله إخوته خلف ظهره، بل كان مسالمًا، يفرح بلقائهم، ويعطف على أبنائهم، لكنه أخيرًا يئس من تصرفات والديه وعدم اكتراثهم به، فأصبح منعزلًا، ينأى بنفسه عن كل ما يحدث في المنزل العائلي.

تزامنت تلك الفترة مع انسداد سياسي حاد، بعد توقيف المسار الانتخابي الذي كانت البلاد تسير فيه، أُلغيت الانتخابات البلدية والولائية التي أُجريت مؤخرًا، والتي فاز بها حزب ديني يميني متشدد، ثم استقال رئيس الجمهورية، محدثًا فراغًا دستوريًا غير مسبوق في تاريخ البلاد، تشكّل

مجلس أعلى للدولة من أربعة مجاهدين كانوا قد ساهموا في تحرير البلاد من الاستعمار قبل عقدين، وتقلدوا مناصب سياسية هامة خلال تلك الفترة، لكن قادة الحزب الفائز رفضوا هذا الإجراء، ودخلوا مع أتباعهم في صدام مع الأجهزة الأمنية، منظمين مظاهرات شعبية ضخمة شلّت مصالح الدولة، اضطر الجيش للتدخل وإعلان حالة الطوارئ بعد عجز الشرطة بمفردها عن استعادة السيطرة.

بعد أشهر، أعلن المجلس الأعلى للدولة عن مرحلة انتقالية تستمر حتى إجراء انتخابات رئاسية جديدة، مع حل الحزب الديني الفائز واعتقال قادته وأتباعه الذين رفضوا الخضوع للدولة، ليُحالوا إلى المحاكمة، دفع ذلك آلافًا منهم إلى الفرار نحو الجبال، حيث شكلوا جماعات مسلحة أعلنت الحرب على الجيش والدرك والشرطة وكل ما يمثل نظام الدولة، ودخلت البلاد في حرب أهلية اختلط فيها الحابل بالنابل، فانهار الهدوء والأمان والسكينة التي كانت تتمتع بها, وارتكبت تلك الجماعات الإرهابية المسلحة أبشع المجازر بحق المواطنين، وعملت على حرق وتعطيل مؤسسات الدولة بكل قوتها، وأدى ذلك إلى ركود اقتصادي شامل على مختلف

الأصعدة، وتنامى نفوذ عصابات التهريب، فيما حوصرت البلاد سياسيًا واقتصاديًا من العالم الخارجي، باستثناء بعض الدول الصديقة التي تُعد على أصابع اليد.

الفصل الثاني: التيه والضياع

كان عدلان يذهب في كثير من الأحيان إلى دار الشباب في أقصى المدينة، يمكث هناك ساعات طويلة، يلعب تنس الطاولة، وأحيانًا لعبة الدومينو التي تعلمها وأتقنها حديثًا، برفقة مجموعة من الشباب لم يكن مقرّبًا منهم سابقًا، وكان يعرف بعضهم معرفة سطحية فقط، أحدهم ياسين، ابن حيّه، يكبره بسنتين، شاب في الخامسة والعشرين، طويل القامة، لطيف الوجه، قوي البنية، عضلي الجسم، يبدو أكبر من سنه، من يراه يدرك قوته الجسدية، ويتمتع بنظرة ثاقبة واثقة، والثاني إبراهيم، من نفس دفعته الدراسية، نحيف ورقيق العود، أشلح الوجه، متجهم الطبع، نحيل المحيا، خاسف الخدين، بلون يميل إلى الصفرة تعكس تعبًا مريضًا، وعيناه الجاحظتان تحملان تعبيرًا غامضًا مبهمًا، والثالث علي، في نفس عمره، تعرف عليه لتوه، أبيض سمين، مدور الرأس، ممتلئ الجسم بالشحوم ككرة ثلجية، كثير التبسم والضحك بسبب أو بدونه، بشوش وفرح دائمًا، ضموه إلى مجموعتهم في الألعاب التي تحتاج إلى أربعة لاعبين، فتوطدت صداقتهم تدريجيًا، بعد أن جمعتهم البطالة والفراغ.

لم تكن القرية تتوفر على وسائل ترفيه تُذكر، سوى بعض الملاعب الترابية التي أنشأها السكان على ضفاف الوادي وحواشيه، ودار الشباب في أقصى المدينة، والتي لا تقدم لشباب القرية سوى اسمها وجدرانها، او تحميهم من برد الشتاء وحر الصيف.

كان عدلان وأصدقاؤه ينظمون مباريات كرة قدم كل مساء جمعة في الملعب الترابي على الطرف الشمالي للقرية، مع شباب حي العمارات، ولم يكن عدلان بارعًا كأقرانه ليعتمد عليه، بل كان يكمل العدد غالبًا، ليسد النقص، ويبقى في الاحتياط إذا زاد عدد اللاعبين عن تعداد الفريق.

كانت تلك الفترة الأصعب في تاريخ البلاد، حيث أُغلقت أمام الشباب معظم السبل، ولم يجد أغلبهم مخرجًا سوى الانضمام إلى المؤسسة العسكرية أو وحدات الشرطة الوطنية، او امتهان بعض انواع التهريب والتجارة، في ذالك السوق التجاري الذي اشتهرت به البلدة منذ سنوات، والذي يعتمد في بضائعه على السلع المهربة أو المستوردة والمقلدة، والتي تُباع بأسعار زهيدة، وقد فعل ذلك معظم شباب القرية؛ فقد اجتاز ياسين مسابقة للانضمام إلى الشرطة، بفضل قوته البدنية وامتلاكه شهادة إتمام

الخدمة الوطنية التي اتمها قبل سنتين، وقدّم علي ملفه للانضمام إلى الوحدات العسكرية، و بقي ينتظران النتائج النهائية منذ ستة أشهر منتظران استدعاءهما.

ولم يكن للشباب خيار آخر، فقد كانت البلاد تغلي بحمى الحرب الأهلية بين الجيش النظامي وجماعات إرهابية مسلحة متعددة التيارات، تسعى لإسقاط النظام بالقوة، بحيث، أعلنت هذه الجماعات الحرب على الحكم وكل من ينتمي إليه، مستهدفة المؤسسات العامة، مهدمة البنى التحتية عبر تفجيرات إرهابية في المدن الكبرى، واقامة نقاط تفتيش مزيفة بالزي العسكري في الطرق الجبلية الوعرة بين المدن والقرى، لاغتيال السياسيين ورجال الدولة والعسكريين وأعوان الامن والشرطة، وتصفية الموظفين الحكوميين وكل ما يرتبط بالدولة، ولم يسلم حتى المواطنون العاديون من جرائمهم، إذ كانوا يذبحون كل من يُشتبه في تعاونه مع النظام، وينهبون أموال الناس وممتلكاتهم، ويختطفون أفرادًا من العائلات الثرية للمطالبة بالفدية، واختلفت وتنوعت هذه الجماعات، حتى اقتتلت وتناحرت، واقتسمت مناطق النفوذ في الجبال والقرى النائية، فيما بينها.

عاد عدلان وحيدًا بعد مغادرة أصدقائه واحدًا تلو الآخر، حيث انضم ياسين إلى وحدات الشرطة في العاصمة، واستُدعي علي إلى ثكنة عسكرية في أقصى غرب البلاد، ولم يكن أمام هؤلاء الشباب خيار سوى ذلك، السبيل الوحيد المفتوح لتأمين مستقبلهم رغم خطورته، حيث سيواجهون آلة الهمجية الإرهابية التي تجتاح البلاد، مخاطرين بأرواحهم للدفاع عن مقومات الدولة.

أما إبراهيم، فقد رُفض ملفه بعد طول انتظار، بسبب أن أحد أبناء عم والده يقود مجموعة إرهابية في المنطقة، وتضم عنصرين آخرين من نفس العائلة، والقوانين تحظر على من لديه أقارب في جماعات إرهابية الانضمام إلى الوحدات الأمنية أو العسكرية، وبعد أشهر قليلة، اختفى إبراهيم عن الأنظار، ولم يُعرف مصيره، حيث أبلغت عائلته عن اختفائه لتجنب المسائلات الأمنية، وشاع بين الناس أنه انضم إلى المجموعة الإرهابية التي يقودها ابن عم والده.

كان لهذان العنصران علاقة وثيقة بإبراهيم قبل صعودهما إلى الجبال والانضمام إلى تلك المجموعة، بحكم قرابتهما وتقاربهما في السن، وكثيرًا ما

دارت بينهم نقاشات حول الوضع السياسي والاقتصادي في البلاد، حيث تأثرا هذان العنصران بشدة بالحركات الجهادية المسلحة العالمية التي تدعو إلى الجهاد ضد الأنظمة الحاكمة، وتصفها بالكافرة، وتعتبر إسقاطها بالسلاح واجبًا دينيًا، وتشبعا بهذا الفكر الجهادي، لكن إبراهيم لم يكن متحمسًا له كأقرانه، كانت نقاشاتهما الحادة تتحول إلى خلافات وخصومات تدوم أيامًا أو أسابيع، لكنهم يتصالحون ويعاودون اللقاء بعدها، وفي النهاية، انضم هذان العنصران إلى المجموعة الإرهابية، بينما تردد إبراهيم في بادئ الامر، وتخلف عنهم، لكن بعد فشله في إيجاد عمل، ورفض انضمامه إلى الجيش بسبب أقاربه الإرهابيين، عادت إليه الوساوس بالفرار والالتحاق بهم من جديد، وبعدما احس ان الأبواب قد أغلقت في وجهه، وان جميع المنافذ قد سدت امامه، قرر اخيرا الانضمام إليهم، وانتظر عودة أحد أقاربه خلسة إلى البلدة لزيارة عائلته، وفر معه دون علم أحد.

بعد مسيرة نصف يوم سيرًا على الأقدام في ظلام دامس، وصل إبراهيم مع قريبه، المدعو أبو عبيدة، إلى معسكر أقامته المجموعة في عمق الشعاب، بين الغابات والأحراش، في قلب الجبال الوعرة، بدا المعسكر

كقرية للهنود الحمر، ببوابة حراسة خشبية في مدخله، مغطاة بالقش وأوراق الأشجار، وتناثرت نقاط حراسة مماثلة حول المعسكر وعلى المرتفعات القريبة، وعند بوابتهم، أطل رجل من نافذة صغيرة كالثقب، لم تظهر منه سوى لحيته السوداء ومقدمة رشاشه، ثم ظهر آخر طويل القامة، بلحية حمراء تغطي رقبته، تبسم وقال: "مرحبًا أبو عبيدة، كيف حال العائلة؟ هل وجدتهم بخير؟" رد أبو عبيدة وهو يحتضنه: "الحمد لله بخير، وها أنا أحضرت مجاهدًا جديدًا،" ربت على كتف إبراهيم وأضاف مبتسمًا: "هذا ابن عمي إبراهيم،" ثم استدار إليه وقال: "وهذا أبو رقية، قائد ميداني معروف، رؤوف بإخوانه المجاهدين، شديد على الطاغوت الكفرة،" مد أبو رقية يده مصافحًا بقوة: "مرحبًا يا إبراهيم، نتشرف بانضمامك إلى إخوتك المجاهدين،" رد إبراهيم مرتجفًا: "مرحبًا أخي".

تقدما إلى الداخل، واخذ أبو عبيدة يشرح لإبراهيم تقسيم المعسكر، الذي كانت تحيط به بوابات حراسة من كل جانب، وفي وسطه ميدان صغير تجمع فيه عدد من المسلحين، وفي الطرف القبلي نحو الوادي، أُقيم ميدان للتدريب، وفي اسفل التل المقابل، قُسمت المغارات التي تأويهم إلى قسم

للعائلات، وقسم للرجال والمنضمين الجدد بالقرب من ميدان التدريب، وقسم اخر عند مدخل المعسكر خصص لأمير الجماعة وكبار المجاهدين، واتجها إلى قسم العزاب والمنضمين الجدد.

بعد يومين من إقامته وتعرفه على أفراد المجموعة، اجتمع بهم أمير الجماعة في الليلة الثالثة وعاينوا المنضمين الجدد، وقسموهم إلى ثلاث فئات: الأولى من الرجال الأقوياء ذوي الخبرة بالسلاح، وجّهوا مباشرة إلى فرقة العمليات الميدانية، والثانية لمن يستطيعون حمل السلاح لكن بدون خبرة كافية، وجّهوا إلى التدريب ليكتسبوا المهارة المطلوبة قبل الانضمام إلى الفئة الأولى، والثالثة لمن لا يملكون القوة الجسدية الكافية، كصغار السن وضعاف البنية والمرضى، حيث قُسموا بدورهم إلى عدة مهام: منها الطبخ والنظافة، أو جلب التموين والأخبار من القرى، ولحسن حظ إبراهيم، وُضع في الفئة الأخيرة بسبب صغر سنه وقلة خبرته، وأُسندت له مهمة الاتصالات باللاسلكي، للتنسيق بين الوحدات المنفذة للمهمات.

لم يكن لدى عدلان القدرة على فعل ما قام به أصدقاؤه، فهو لا يتمتع ببنية جسدية قوية كأقرانه، كما أجرى عملية جراحية في صغره لاستئصال

الزائدة الدودية، مما جعل فرصته في الانضمام إلى أجهزة الدولة - التي تشترط اللياقة البدنية والصحة الجسدية الكاملة - معدومة.

ومع بداية السنة الدراسية، أخبره أحد زملائه السابقين أن معهدًا للتكوين المهني متخصص في التسيير، يقع في عاصمة الولاية، قد فتح دورة تكوينية للطلبة من مستوى الثالثة ثانوي، استجمع عدلان قواه، وأعد الملف المطلوب للمسابقة، وتدبر أجرة التنقل من أخته الكبرى المتزوجة ليذهب ويقدم طلبه ويسلم ملفه للإدارة، وبعد انتظار دام أكثر من شهر على أحر من الجمر، وصلته دعوة للمشاركة في المسابقة المحددة بعد خمسة عشر يومًا.

كاد عدلان يطير فرحًا، أخرج من خزانته المهترئة بعض الكتب القديمة لسنته الأخيرة في الثانوية، وبدأ يراجع دروسه بنهم وشغف كبيرين، كأن لسان حاله يقول إنه نادم ندمًا شديدًا على ترك الدراسة، بعد أن عانى ويلات البطالة ثلاث سنوات كاملة، ورأى زهرة شبابه وعنفوانه تذبلان يومًا بعد يوم تحت وطأة الفراغ والبطالة، وأدرك أيضًا أنه لم يجد دعامة يستند إليها ليبدأ حياته المهنية بقوة، كما فعل بعض الشباب المحظوظين من

جيله، وعرف أن لياقته البدنية وصحته لا تؤهلانه حتى للانضمام إلى الوحدات العسكرية أو الشرطة، ولم يبقَ أمامه سوى العودة إلى الحياة الدراسية، مهما كان الثمن.

في صباح يوم المسابقة، استيقظ عدلان مبكرًا واتجه إلى محطة النقل، حجز مكانًا في سيارة أجرة ليصل بسرعة، مفضلاً ذلك على الحافلة التي تستغرق وقتًا أطول، أخذ معه ملخصات دراسية كان قد راجعها خلال الأيام السابقة، وظل يطالعها طوال الطريق، وفور وصوله إلى الولاية، سارع نحو المعهد القريب من المحطة.

وقف وسط حشد كبير من المتسابقين أمام باب المعهد، مع الساعة الثامنة، فُتحت الأبواب، فتوجه الجميع إلى قاعات الامتحان، اتجه عدلان مباشرة إلى القاعة السابعة، المسجل رقمها في استدعائه الذي وصله بالبريد، وقرأ الأسماء والأرقام على الطاولات حتى وجد اسمه ورقمه، فجلس في صمت وهدوء، وسرعان ما امتلأت القاعة بالمتسابقين، ودخل القائمون على المسابقة والأساتذة الحراس, بدأ أحدهم بتوزيع أوراق الإجابة، ثم فتح

أستاذ آخر ظرفًا كبيرًا، أخرج منه أوراق الأسئلة، وبدأ توزيعها، في الوقت نفسه، وأملى ثالث شروط المسابقة، محذرًا من استخدام أي وسيلة للغش.

تناول عدلان ورقة الأسئلة، قرأها بتمعن كبير، ثم أعاد قراءتها مرات متتالية ليفهم التمارين جيدًا، أمسك قلمه الأزرق، وبدأ يكتب ببطء وهدوء شديدين، ينقش الحروف والكلمات والجمل التي ترسخت في ذاكرته على أوراق المحاولات، كان يتوقف أحيانًا، ينظر إلى صفحة الأسئلة، يتمعن فيها مجددًا، يهز رأسه، ويرمق الأساتذة الحراس بنظرات خاطفة، مستمعًا إلى تنبيهاتهم المتكررة ونصائحهم، ويشعر ببعض الامتعاض، ثم يتحسس ظهره متألمًا من تعب الطريق، ثم يعود ليعدل بعض ما كتبه، وأخيرًا نقل إجاباته النهائية إلى ورقة الإجابة الرسمية.

أُجريت المسابقة في يوم واحد، في مادة الرياضيات صباحًا والثقافة العامة مساءً، وما إن انتهى عدلان حتى عاد إلى القرية في المساء نفسه، وبمجرد أن خطت قدماه عتبة البيت، استقبلته والدته تسأله:

"كيف جرت الأمور يا ولدي؟"

أجاب عدلان: "بذلت قصارى جهدي للإجابة على الأسئلة، كانت متنوعة".

الأم: "وهل كانت إجاباتك صحيحة؟"

عدلان: "في الرياضيات كانت متوسطة، أما الثقافة العامة فجيدة".

الأم: "ادعو الله أن تجتاز هذه المسابقة بنجاح لتنتهي معاناتك يا ولدي".

عدلان: "إن شاء الله يا أمي، والآن أريد النوم لأرتاح، فقد أنهكني السفر ".

أوى إلى فراشه، وسقط مغشيًا عليه لبضع ساعات من شدة التعب الذي أصابه من السفر والسَّهر للمراجعة في الأيام الأخيرة، استفاق بعد العصر على صوت والدته توقظه:

"انهض يا ولدي، لقد نمت كثيرًا، والساعة تجاوزت العصر".

رد وهو يتثاءب، ويغطي رأسه باللحاف مجددًا: "اتركيني يا أمي، ان التعب أنهكني".

نزعت الأم الغطاء عنه: "انهض الآن، لا يُستحسن النوم في هذا الوقت من المساء ".

نهض بصعوبة، وهو يفتح عينيه بمشقة، ويمد ذراعيه متكاسلاً ويتثاءب، كانت الساعة تشير إلى الرابعة عصرًا، خرج من البيت يمشي دون هدف واضح، فقط ليهرب من ضغط الجدران وثرثرة والدته المتواصلة بنصائحها التي لا تنقطع، لم يرد البقاء في الحي أيضًا، متجنبًا أعين الجيران المراقبة، قطع أزقة عديدة حتى وصل إلى دار الشباب، حيث كان يقضي وقتًا مع أصدقائه قبل مغادرتهم تباعًا، دخل القاعة الفسيحة، جلس على مقعد خشبي مقابل طاولة التنس، يراقب شبابًا يتبادلون المباريات بصمت مطبق، كانت معظم الوجوه غريبة، وبعضها يعرفه سطحيًا، أصدقاؤه الذين كانوا يؤنسون وحدته غادروا، لم يبقَ سوى الجدران وبعض الذكريات في ذهنه، جلس هناك، وأحيانًا يقف خلف مجموعة تلعب الدومينو - لعبته المفضلة - يراقبهم دون أن ينبس بكلمة.

بقي حتى ما بعد المغرب، ثم خرج يتجول في الأزقة والشوارع بلا وجهة أو هدف، كان الفراغ الرهيب يقتل روحه، يحطم فكره، يغتال أحلامه، ويفني جسده يومًا بعد يوم، حتى صديقه إسماعيل، الذي كان يؤنس وحدته أحيانًا، أصبح مشغولًا، لا يلتقيه إلا نادرًا او عن طريق الصدفة.

استمر على هذه الحال أسابيع، يترقب نتائج المسابقة التي أجراها في المعهد الوطني المتخصص في التسيير بالولاية، كان يسأل بعض طلاب المعهد من أبناء مدينته عن موعد النتائج، ويمر أحيانًا على صندوق البريد ليتفقده، عله يجد رسالة، كرر ذلك مرات عديدة خلال تلك الأيام.

وبعد أيام من ذالك، بينما كان عدلان يتجول كعادته في أزقة المدينة، التقى بأحد زملائه المتمدرسين في المعهد، الذي أخبره أن نتائج الناجحين عُلقت منذ يومين، عاد إلى البيت مسرعًا، أخبر والدته التي أعطته بعض الدنانير المخبأة، واتجه مباشرة إلى محطة النقل، حجز مكانًا في سيارة أجرة انطلقت فورًا إلى عاصمة الولاية.

هرول إلى المعهد، حيث تجمع حشد كبير أمام البوابة، اندس بينهم، وأخذ يقرأ أسماء الناجحين على اللوحة في المدخل، اسمًا تلو الآخر، أعاد قراءة القائمة حرفًا حرفًا، أغمض عينيه طويلاً، كرر المشهد مرات، ثم اختلس نظرة أخيرة، حتى رأى اسمه ضمن قائمة تخصص المحاسبة والتسيير، قفز فرحًا، عاد إلى محطة النقل، وركب إلى القرية مباشرة.

دخل البيت يلهث، صارخًا: "أمي، أمي"!

خرجت الأم من المطبخ مذهولة: "ما خطبك يا ولدي؟"

رد عدلان: "الحمد لله، نجحت! نجحت"!

قالت الأم: "مبروك... مبروك!" ثم وضعت يدها على فمها، أطلقت زغاريد متتالية، رمت الملعقة التي كانت تحملها، واحتضنته قائلة: "والدك سيفرح بذلك." خرجت أخته أيضًا، أطلقت زغاريد متنوعة، وباركت له.

عندما عاد والده، عمي العربي، آخر المساء، أخبرته الأم بالخبر، ابتهج كثيرًا، خرج إلى الحي، اشترى لحمًا وفواكه، وطلب من زوجته إعداد وليمة تلك الليلة احتفالاً بنجاح ابنه.

أما أخواه خالد والهادي، فلم يبديا أي رد فعل يُذكر عندما زارا البيت مع عائلتيهما في عطلة نهاية الأسبوع، بعد سماعهما بالخبر، لم ينطقا بكلمة، ولم يكلفا نفسيهما بمباركته، كأن الأمر لا يعنيهما، ولم يعرض أحدهما استضافته رغم سكنهما في نفس المدينة التي سيدرس فيها، ولحسن حظه،

كان المعهد يوفر نظامًا داخليًا كاملاً، بغرف إقامة ومطعم يومي مجاني على نفقة الدولة.

أما أخوه عمار، فكان دائم الغياب، فعمله كعون أمن في مؤسسة تنقيب عن النفط ونقله إلى موانئ الشمال يبقيه بعيدًا لأشهر، لا يعود إلا في زيارات قصيرة لا تتجاوز أسبوعًا.

كان ذلك الأسبوع حافلاً بالنسبة لعدلان، أعطاه والده مبلغًا من المال للتحضير للدراسة، فاشترى ثيابًا جديدة، وحزم حقيبته بكل ما يحتاجه لدراسته القادمة، خبأ بعض النقود لرحلته إلى الولاية، حيث سيمكث في المعهد لسنتين ونصف، ولن يعود إلى البيت إلا في زيارات خفيفة خلال الأعياد والمناسبات والعطل الفصلية.

حصل عدلان على غرفة في الإقامة الداخلية للمعهد، كانت مربعة الشكل، تحوي أربعة أسرّة مرتبة كل اثنين فوق بعضهما في زاويتين متقابلتين، أمام كل سرير خزانة إسمنتية مدمجة في الجدار بأبواب خشبية قديمة تحمل آثار الزمن، وفي الوسط طاولة خشبية وأربعة كراسي متآكلة،

وفي آخر الغرفة نافذة كبيرة تطل على ساحة المبيت المشتركة للطلبة والطالبات.

اقتسم الغرفة مع ثلاثة شبان من بلدته، معرفته بهم سطحية تقتصر على إلقاء السلام في الشارع، تتأرجح حياتهم داخلها بين التفاهم أحيانًا والخلافات أحيانًا أخرى، غالبًا بسبب تباين أوقات نومهم. ماعدا زيدان، الذي يشبه عدلان في طباعه: مسالم، وديع، هادئ، يحترم ظروف الآخرين. كانا يريان الغرفة مكانًا للراحة والدراسة والهدوء، وإذا أرادا السمر أو اللعب، يتجهان إلى نادي الطلبة في الطابق الأرضي. على النقيض، كان سليمان كثير الحركة والكلام، لا يهدأ، يخالط الجميع ويدعو أصدقاءه للسهر ولعب الورق والدومينو دون مراعاة خصوصية الآخرين أو وقت راحتهم، أما بشير فكان محايدًا، لا يظهر مواقفه علنًا، ينضم إلى سليمان إذا وجدهم يلعبون، ويهدأ إذا سكنت الغرفة.

لم يكن عدلان يرتاح لسليمان وبشير كثيرًا، علاقته بهما تقتصر على اللقاءات الصباحية أو آخر المساء، وفي القليل من الأحيان يبقى معهما إذا كان هناك زملاء آخرون يناقشون موضوعًا، فيتدخل بحماس وعاطفة لكنه

لا يجد منهم اهتمامًا كافيًا، يجيبونه بفتور كأنه في مرتبة ثانوية، مما يزيد من خنقه وغيظه، فيصمت فجأة كأنه يكبح كلامه عمدًا، ويقرر في قرارة نفسه الابتعاد عنهم نهائيًا، متجنبًا مجالستهم.

على العكس، كان يميل إلى زيدان، يذهبان معًا للمطالعة في مكتبة المعهد أو يبقيان في الغرفة للمراجعة بهدوء، أو يتسكعان في شوارع المدينة لقضاء حاجياتهما، ويتشابهان في حبهما للفنون والمسرح، فقد انضما مؤخرًا إلى الفرقة المسرحية بالمعهد.

انخرط عدلان في الدراسة بقوة، متميزًا بالاجتهاد في مراجعة الدروس والاهتمام بها، وأظهر ذكاءً استثنائيًا في حل المسائل والتمارين، خاصة في المواد القانونية والمحاسبية. كان ملتزمًا بالحضور والمشاركة، مهتمًا بأدق التفاصيل، مما اكسبه حب أساتذته وزملائه. ترشح لمكتب الطلبة فكسب ثقتهم ليمثلهم في المنظمة الطلابية، وأُسندت له رئاسة اللجنة الثقافية، أبدع في تنشيط المعهد الذي كان يعاني ركودًا ثقافيًا رهيبًا: أعاد تشكيل الفرقة المسرحية وكان نجمها الأبرز، يؤدي مونولوجات بمفرده ويكتب معظم السيناريوهات بنفسه، أسس فرقة موسيقية ومجلة حائطية، ونظم

معارض فنية ومسابقات ثقافية وعلمية تنافست فيها التخصصات والسنوات الدراسية.

وبالرغم من أن الدراسة والعمل الثقافي –خاصة المسرح الذي برع فيه منذ صغره– كانا متنفسًا له، ظل شعور الوحدة يلازمه، لا يختلط بالناس كثيرًا كأنه ليس له حظ في محبتهم إليه. لم يكن محظوظًا في العلاقات العاطفية، أعجب بفتيات كثيرات لكن أغلبهن صددنه متعللات بأعذار مختلفة، وحتى في علاقات سطحية عابرة مع طالبات انتهت بالفشل: أحب فتاة جميلة اكتشف أنها متعددة العلاقات فأنهى الأمر دفعة واحدة، ثم ارتبط بأخرى يتجولان في المدينة أو يجلسان في الحديقة العامة، لكنهما افترقا نهاية السنة بعدما رآها مع شاب آخر يوصلها إلى محطة النقل.

وصل إلى حد التفكير عدة مرات في عقد حديث بسيط مع أي طالبة في ساحة المعهد أو فتاة تمر في الشارع وحدها، بطريقة خجولة عاطفية، يقول لها إنه يموت من الشعور بالوحدة، ويتخيل أنها لن تصده، سيقول لها إنه لا يملك امرأة في حياته، وستقول له كلمتين تعاطفًا كصديقة أو أخت، تصغي

إليه دون سخرية، تدعه أملًا في كلمتين فقط ولو افترقا إلى الأبد. لكنه يتراجع فجأة ويبقى على حاله.

لم يكن محظوظًا في علاقاته مع الناس سواء العاطفية أو الصداقات، يقضي معظم وقته وحيدًا في الغرفة يراجع دروسه، أو في قاعة الحفلات يتدرب على مسرحياته للمسابقات والمناسبات الوطنية. كان يعود إلى البلدة عند الحاجة إلى المال، في نهاية العطلة الأسبوعية كل شهر –بشرط عدم اقتراب الامتحانات أو انشغاله بمسابقات فكرية أو نشاطات ثقافية مرتبطة بالمناسبات الدينية والوطنية– يقضيها نائمًا ليستعيد طاقته، وفي مرات نادرة يزور محل صديقه إسماعيل زيارة خاطفة للاطمئنان عليه، بخلاف ذلك لا يتحرك كثيرًا في البلدة، تزوده أمه بنقود تحصل عليها من والده أو أخيه عمار عند عودته لأيام قليلة، إذ لم يكن والده قادرًا على تغطية مصاريف الأسرة.

كانت تلك الفترة من العشرية السوداء الأصعب، وفي أحد الأيام عاد عدلان إلى البلدة وسمع بخبر اغتيال صديقه علي في كمين إرهابي نصَبته مجموعة مسلحة بين منعرجات جبلية وعرة على طريق يربط الناحية

الشرقية بالعاصمة، كان علي عائدًا لعطلة عيد الأضحى. روى ناجٍ أن المجموعة نصبت كمينًا مزيفًا بزي الجيش، صعد أحدهم إلى الحافلة صائحًا: "من ينتمي إلى الجيش أو الدرك أو الشرطة، فليترجل لأمر هام." نزل نحو عشرة أفراد ظنًا أنها مسألة إدارية، لكنهم فوجئوا بقتادهم إلى أسفل الوادي حيث أوقفوا الحافلة والسيارات والشاحنات، ذبحوهم بوحشية، بينما نهبت مجموعة أخرى متاع الركاب وأموالهم، انتزعت الحلي من النساء، واختطفت فتيات شابات، ثم فرت إلى الغابات والجبال.

حضر عدلان جنازة علي في جو مهيب بحضور السلطات العسكرية والمدنية، وحزن عليه بشدة، وظل ثلاثة أيام يزور بيت العزاء لمواساة أهله. كانت أيامًا كئيبة عانت فيها البلاد من تمدد الجماعات الإرهابية وتناحرها، استبدادها بالمواطنين العزل، نهب أرزاقهم، سبي فتياتهم، وقتل كل من يُشتبه في تعاونه مع النظام، وعانت أيضًا من حصار دول معادية وفقدت بريقها الدولي. لكنها بدأت تتعافى تدريجيًا بعد انتخابات رئاسية ديمقراطية فاز بها مجاهد قديم من جيش التحرير عاد من المنفى، مخلصًا لوطنه، فسَنَ مراسيم للمصالحة الوطنية والعفو عن غير المتورطين في الدماء.

استفاد إبراهيم من ذلك بعد ثلاث سنوات في الجبال، نادمًا على ما اقترفه، فسلم نفسه للدرك، استعاد حقوقه المدنية، وكشف معلومات دقيقة عن مجموعته، فَنَصَب الجيش كمينًا قضى فيه على معظم أفرادها، ألقى القبض على الباقين، واقتحم معسكرهم وأحرقه. بدأ اقتصاد البلاد يتعافى، عادت الدولة إلى مسارها الخارجي، وتحسنت الأوضاع الأمنية بعدما سلمت معظم الجماعات أسلحتها وانضمت إلى المصالحة.

كانت تلك الفترة في حياة عدلان انتقالًا من فراغ إلى أمل، لكنها مؤلمة غيّرت تفكيره: فقد أغلب أصدقائه القلائل؛ اغتيل علي بآلة الغدر الهمجية، انضم ياسين إلى الشرطة فتغيرت طباعه واكتظ وقته، أما إبراهيم فبعد سنوات في معسكر إرهابي أصبح الاقتراب منه شبهة يتجنبها الجميع، خاصة من عرفوه. تلاشت رغبة عدلان في العودة إلى البلدة، وحتى إذا اضطر لذلك يعود سريعًا، يبيت ليلة واحدة ليتزود بمال من والديه، ثم يفر صباحًا إلى إقامته بالمعهد التي يراها ملاذًا آمنًا وقشة يتشبث بها وسط العاصفة، خاصة في عطل نهاية الأسبوع حين يغادر سليمان وبشير إلى البلدة، فيتخلص من ضجيجهما.

استبدت به كآبة غريبة، شعر أن إخوته تخلوا عنه وأصدقاءه هجروه، يلازمه الخوف من الوحدة مدى الحياة. رغم أن التدريب على المقاطع المسرحية مع زيدان –الذي يفضل البقاء في الإقامة ونادرًا ما يعود إلى بيته– كان متنفسًا، ظل القلق ينهشه، يضيق ذرعًا في الشارع وعند الاختلاط، لا يرتاح إلا منزويًا في غرفته أو جالسًا بمفرده في ساحة المعهد يتأمل الورود والأشجار والخضرة، أو بعد العشاء ينظر من النافذة إلى أضواء المدينة المتلألئة مع ركح الليل.

حاول مرارًا فهم ما ينقصه ولماذا يعود دائمًا وحيدًا، وما يدفع الناس للنفور منه رغم تعاونه ومحبته للخير. ثم عاد يفكر: "ربما المال هو السبب، افتقاري يبعد الناس عني حتى المقربين، لا تحبون صحبة الفقراء بل تميلون للأغنياء وتخضعون لهم، ترون في العلاقات المنفعة فقط، وأنا بلا منفعة الآن." توصل إلى هذه النتيجة أخيرًا، فقرر في قرارة نفسه: "يجب أن أكمل دراستي، أعمل بجد لأجمع المال الكثير، كلما زاد مالي زاد خضوع الناس لي، سأنهي هذا العام الأخير ثم أبحث عن عمل لأكتنزه، المال وحده سيبني لي مكانة في عائلتي ويصنع أصدقاء وأحباء كثر.

"كان يخرج أحيانًا بمفرده يعبر شوارع المدينة ويسير في أزقتها دون وجهة بالضبط، فقط ليغادر المعهد كالبقية وليبدو أن له مصالح خارجًا، يقطع الأزقة حتى يصل وسط المدينة فيشعر بالخجل والهوان والحزن إذ ليس له مكان يأوي إليه، مستعدًا للجلوس تحت شجرة في زاوية يراقب المارة بساحة الوسط لبضع ساعات، ثم يعود عبر طرق مختلفة، يحرص ألا يلتقي بمن يعرفهم، فلا أحد يدعوه للتجول أو الشاي في مقهى أو مشاهدة مباراة، كأنه غريب رغم سنتين مكوثه وهو في عامه الأخير.

يقضي معظم أوقات فراغه يمشي طويلًا حتى ينسى أحيانًا أين هو، اعتاد ذلك من أيامه في القرية ولم يغير طبعه في المدينة، كثيرًا ما وجد نفسه في ضواحيها ثم يعود، المشي يخفف الأثقال وينسيه بعض الهموم، لكن وحدته –عدوه الملازم– ظلت تراوده، بقدر ما تريحه تقهره.

مر عامه الأخير على تلك الحال، وفي السداسي الأخير أُرسل إلى مؤسسة اقتصادية لإنتاج الإسمنت لتربص تطبيقي في مصنع يبعد عشرة أميال على حافة جبل كبير، اختار إنجاز مذكرته بمفرده، بذل جهدًا كبيرًا: يذهب صباحًا للتدريب الميداني ويمكث مساءً في مكتبة المعهد للكتابة، جمع فيها

فصلًا نظريًا وآخر تطبيقيًا مقارنًا بينهما ليخرج بطرح علمي يسقطه على ما شاهده. سهر وتعب كثيرًا في تلك الفترة القصيرة، لكنها كانت المرة الأولى التي شعر فيها بسعادة تغمر قلبه، إذ استطاع تفريغ طاقته المكبوتة في عمل ودراسة، وإن كان تربصًا صوريًا لمذكرة تخرجه فقط.

في نهاية السنة، وبعد إتمام مذكرته، حان وقت التخرج، دعا والديه وإخوته وأصدقاءه القلائل وزملاءه، لكن لم يحضر سوى والديه وأخوه عمار الذي اعتذر بقية الإخوة بسبب انشغالهم، وحضر إسماعيل – الصديق المخلص من الطفولة– وزيدان مع بعض الزملاء والأساتذة وعمال المعهد، أقام حفلة صغيرة قدّم فيها مذكرته ببراعة أذهلت الحضور بنباهته واختياره لموضوع جديد، وحصل على علامة الامتياز.

بعد أسبوعين، تسلم شهادة تخرجه في حفل نهاية السنة الذي يقيمه المعهد سنويًا، حمل أمتعته بعدها وعاد مباشرة إلى البلدة، إلى تلك القرية المشؤومة حيث سيعود للبطالة والبحث عن عمل من جديد، وسيظل فيها وحيدًا كما اعتاد منذ ولد ورأى النور.

الفصل الثالث: القشة

مرت ستة أشهر وعدلان في سبات عميق، ينام معظم النهار، ويسهر الليل حتى الفجر، نتيجة إرهاق إنجاز مذكرة تخرجه ومناقشتها، مضافًا إليه اختلاف أجواء القرية عن حياة المعهد في المدينة، بعد هذه المدة، استفاق أخيرًا من غيبوبته، وبدأ يستعيد تدريجيًا روتينه القديم في القرية، ينهض متأخرًا، يتجه إلى وسط المدينة، يطوف في شارع الاستقلال، ويتنزه أحيانًا على ضفاف الوادي الذي يقسم القرية نصفين، يتجول على الأرصفة، لكنه نادرًا ما يلتقي بوجوه كان يعرفها، فقد استُبدلت بوجوه جديدة، وتغير الكثير في غيابه عن البلدة.

ومع مرور الأيام، كاد الفراغ الرهيب ان يفقده عقله مجددًا، لم يعد يستقر في مكانه؛ يشتري بعض الجرائد، يستند إلى جدار البيت، يتصفحها دون قراءة حقيقية، ويقرأها دون أن يقرأها فعلاً، أحيانًا يضحك وحده، وأحيانًا يبكي بلا سبب واضح، في النهاية، نحف جسده، كاد يمرض، واستولى عليه خوف البقاء وحيدًا، تسكع في البلدة بمفرده، يعاني اضطرابًا عميقًا دون أن يدرك ما يحدث.

عاد عدلان ليعيش وحيدًا كما كان بعد مغادرته المدينة، غادر معظم أصدقائه القلائل الذين عرفهم، ومن بقي في القرية تغيرت حياته، انشغلوا بعائلاتهم وأعمالهم، تبدلت اهتماماتهم، لم يعد لديهم وقت للهو والتسامر كأيام شبابهم، عاد هو يتسكع بمفرده في الشوارع والأزقة، يجلس في زوايا منعزلة، يعيش حياة خاملة، بطيئة، شاحبة، ساخطًا على مصيره، ناقمًا على وجوده.

في أحد الأيام، بينما كان عدلان يتجول كعادته في أزقة المدينة بلا هدف، يسلك أحد الشوارع، سمع صوتًا من خلفه يناديه، التفت فإذا به صديقه من أيام المتوسطة والثانوية، إسماعيل، واقفًا على عتبة محل تجاري، عاد إليه مسرعًا، احتضنه وضمه إلى صدره بقوة.

صاح إسماعيل: "يا إلهي، هذا أنت يا عدلان! لم نلتقِ منذ حفل تخرجك؟ أين اختفيت يا صديقي؟ كأن الأرض فتحت وابتلعتك!" قالها مازحًا، شعر عدلان بفرحة عارمة تغمر قلبه، كأن عبئًا ثقيلًا زال عن روحه. لم يشعر

بالإرهاق المعتاد من مشيه الطويل من أطراف المدينة إلى وسطها، رغم أنه كان دائمًا ينهكه.

رد قائلاً: "نعم، لم نلتقِ منذ أشهر، أنت منشغل بالتجارة والسوق، وأنا كنت في سبات للراحة من تعب مذكرة التخرج، والتأقلم مجددًا مع حياة هذه القرية المشؤومة،" استدار إسماعيل، ممسكًا بيد عدلان، وأدخله إلى محله الصغير قائلاً: "فعلاً يا صديقي، عجلة الحياة أخذتنا في طريقها، ولم نقاومها، فدوّامتها أقوى منا جميعًا، فتحت هذا المحل للعطور ومواد التجميل بمفردي بعدما غادر أخي سليم إلى العاصمة قبل أربعة أشهر وأسس تجارة جملة هناك".

رد عدلان، وعيناه تبرقان بابتسامة تعكس فرحه العميق بلقاء صديقه، وهو يدخل المحل: "نعم يا صديقي، أصبت، عجلة الحياة تدور بسرعة رهيبة، لا تنتظر أحدًا، تأخذ من يتشبث بها، وتدوس كل من يعترضها، ها نحن شباب بعدما كنا صبيانًا نلهو بلا تفكير".

دخل الاثنان معًا إلى وسط المحل الصغير الذي افتتحه إسماعيل منذ فترة قصيرة، بعد أن غادر أخوه الأكبر سليم البلدة، كان سليم يملك محلًا في السوق لبيع الألبسة المستعملة بالجملة، عمل فيه إسماعيل لفترة، قبل أن يقرر سليم إغلاقه والتوجه إلى العاصمة لتأسيس تجارة كبيرة هناك، في تلك الأثناء، جمع إسماعيل بعض المال ليستقل بنفسه، فأسس هذا المحل المتخصص في بيع العطور ومواد التجميل.

قال إسماعيل: "تفضل بالجلوس يا صديقي، ومرحبًا بك في كل وقت وحين، ويمكنك المجيء متى شئت لتؤنسني وتساعدني، ما دمت لم تجد عملًا بعد".

جلس عدلان على مقعد خشبي بجوار إسماعيل، وقال: "بالتأكيد يا صديقي، سأزورك كلما سنحت لي الفرصة، وسأعود إلى هنا دون أدنى شك، وسأكون سعيدًا بذلك".

ثم هز رأسه، واعتدل في جلسته، وأردف قائلًا: "تصور أنني منذ تخرجت قبل بضعة أشهر، وأنا أمر من هنا دون أن ألاحظك، ولم أتعرف على الكثير من الناس أيضًا، فقد تغيرت معظم الوجوه".

رد إسماعيل: "لقد غادر معظم زملائنا القرية، تجند الكثير منهم في الجيش، ومن بقي فهو إما مختبئ في زاوية ما، أو يعمل في محل مثلي، أو دفن نفسه في عمل شاق بالمنجم، أو ظل حبيس جدران منزله، يعاني قسوة الفقر والحرمان بسبب البطالة."

كان عدلان معتادًا على قطع تلك المسافة الطويلة كل يوم، من أقصى طرف المدينة حيث يقطن إلى وسطها، ويتوجه في معظم أيام الأسبوع إلى محل إسماعيل، إذ لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه، ويحمد الله أن له صديقًا مخلصًا منذ أيام الطفولة مثل إسماعيل، لم تبدله الأيام أو تغيره السنون.

وأصبح يمضي ساعات طويلة برفقة صديقه، يساعده في ترتيب المحل والبيع، وكثيرًا ما كان يحل محله، كما اعتاد أن يفعل سابقًا في محل أخيه سليم بالسوق عندما يغيب لسبب ما، واحيانا كثيرة يكافئه إسماعيل ببعض النقود تقديرًا لجهوده.

كان المحل يعج بالزبائن من النساء والفتيات، مختلفات الأعمار، يقصدنه لشراء حاجياتهن من مواد التجميل والعطور النسائية، وفي أحد الأيام، دخلت مجموعة من الفتيات المراهقات، يبدو من مظهرهن أنهن طالبات في الثانوية الواقعة آخر الشارع حيث المحل، استغللن ساعة فراغ للخروج واقتناء بعض احتياجاتهن، كن يتناقشن كثيرًا ويتجادلن باستمرار، يقلبن السلع بين أيديهن، ويسألن في الوقت ذاته عن أسعارها ومصدرها، متسائلات إن كانت أصلية أم مقلدة.

كان عدلان يجيب عليهن باختصار، متأملًا تصرفاتهن في صمت وهدوء تام، وعلى حين غرة، برزت من بينهن فتاة سمراء، معتدلة الطول والقوام، ممتلئة الجسم بجمال آسر، كانت ذات وجه بيضاوي مستدير كالقمر، وعينين واسعتين سوداوين براقتين تخلوان من أي عيب، وشعر ناعم مبعثر بخصلات كثيفة تشبه أمواج البحر، أضفت رزانتها وسكونها وحياؤها وقارًا وهيبة افتقدتها كثيرات من الفتيات الثرثارات، كانت نظرتها صامتة كأنها لغز، تجمع بين ذكاء حاد وريبة وتحدٍ في آن واحد، تلك النظرة التي تجذب

الانتباه، حيث تناديها زميلاتها بـ"سلمى"، تقدمت نحو عدلان وهي تحمل قارورة عطر، ثم سألته: "هل هذه أصلية؟"

نظر إليها بانتباه، وقد أسرته بهاء جمالها وسحر صوتها الرقيق، فأجاب بصوت هادئ مبحوح: "نعم، إنها أصلية،" ثم مد يده وأمسك بطرف القارورة التي كانت تتفحصها أمامه، فجأة، لامست أصابعه يدها الناعمة كالحرير، فشعر بعاطفة جياشة تجذبه إليها، وإحساس جديد لم يألفه من قبل، خفق قلبه، وتسارعت نبضاته، فسألها: "هل ستأخذينها؟"

سحبت سلمى يدها في الحال وهي تبتسم، ثم وضعت أمامه بعض المواد الأخرى التي اختارتها وحملتها بيدها الثانية، قالت وعيناها تلتمعان: "وإن كانت هذه أصلية، سآخذها أيضًا،" كررت ذلك بلهجة متشككة وهي ترفع شفتها العليا: "يجب أن تكون أصلية، فأنا لا أستعمل المقلدة، قد تسبب لي الحساسية".

ثم ما لبثت إحدى صديقاتها أن تدخلت قائلة: "إسماعيل لا يجلب إلا السلع الأصلية، والدتي تشتري منه منذ افتتح المحل، ولم يحدث أن خدعنا مرة واحدة، أو وجدنا مشترياتنا مغشوشة".

كانت هذه الصديقة، التي تبدو أقرب إليها، تُدعى سارة، نحيفة ورقيقة العود، وجهها مائل إلى الصفرة، شعرها أشقر متدلٍ على كتفيها، وعيناها زرقاوان بلون السماء، كانت تشبه الأوروبيات في مظهرها كثيرًا، وكانت أكثر ثرثرة وتسرعًا واندفاعًا وجرأة من زميلتها، كثيرًا ما وجدت نفسها متورطة في أمور لا تعنيها، لا من قريب ولا من بعيد، ويرجع ذلك إلى فضولها الشديد الذي كان يدفعها دائمًا لمعرفة كل ما يدور حولها وكل جديد.

نظر عدلان إليهما وهو يحسب ثمن ما اختارته سلمى، ويجمعها في كيس ورقي أحمر اللون، ثم قال: "زميلتك وأهلها زبائن دائمون للمحل، ويعرفون جودة السلع".

وسرعان ما تجمعت بقية الفتيات الأخريات حولها، وكل واحدة اختارت بعض الحاجيات ووضعتها أمام عدلان، الذي أنهى بسرعة جمع الثمن،

وسلم المشتريات إلى سلمى، ولم تنزل عيناه عنها لحظة واحدة، ولم تخفض نظراته، بل ظل يتفحصها ويتأمل حسن جمالها وقوامها.

وبمجرد أن دفعت الفتيات ثمن مشترياتهن، غادرن المحل مباشرة، لكن سلمى استدارت فجأة، وألقت نظرة خاطفة نحو عدلان وهي تبتسم، بدا فيها الكثير من الإعجاب، فتبسم هو الآخر لها.

مرت الأيام، وأصبحت تلك الفتيات يترددن على المحل كثيرًا لشراء بعض حاجياتهن، وكان عدلان، كلما التقى سلمى، يحمر وجهه كالكرز، إذ كان الدم يصعد إلى رأسه حالما يراها، تتسارع نبضات قلبه حتى تكاد تُسمع من بعيد كدقات الدف، وتضطرب تصرفاته فلا يدري كيف يتصرف، وتتشتت الكلمات على شفتيه فلا يعرف ماذا يقول، وصار ينتظر قدومها بفارغ الصبر، لكنها لم تكن تأتي كثيرًا، إلا مع اقتراب أيام الأعياد والمناسبات.

لاحظت سلمى أن عدلان يضطرب حينما تزور المحل، ويحاول ألا ينظر إليها أمام الآخرين، مفضلًا أن يسترق النظر إليها خفية، كان ذلك يسليها كثيرًا، فأخذت ترقب نظراته وترصدها بإلحاح، وإذا لم يستطع مقاومة نداء

عينيها اللتين تحدقان به، كان يرفع رأسه من حين لآخر رغم إرادته، كأن قوة خفية تدفعه لينظر إليها، فإذا حدّق فيه الجميع، أنزل عينيه وغيّر اتجاه نظرته في الحال، عندها، كانت الفتاة تضحك وهي تثبت نظرها عليه، فيزداد اضطرابه وارتباكه، ويشعر بمزيد من التوتر، حتى ينتهي به الأمر إلى الخجل مرة أخرى، وكان إما يدير ظهره أو يختبئ وراء صديقه إسماعيل، لكنه بعد دقائق قليلة يلتفت من جديد، مدفوعًا بتلك القوة الخفية في نفسه، ليتأكد هل ما زالت الصبية تراقبه أم توقفت عن ذلك، فإذا به يلاحظ أنها مالت جانبًا، حتى كادت تلتصق برفوف عرض السلع المستندة إلى جدران المحل، تراقبه بمزيد من الانتباه، وهي تسترق النظر من جانبها تحت أهدابها، منتظرة بإصرار أن يرفع عينيه نحوها.

ولما أدرك عدلان أنها فتاة فاتنة الجمال، اشتعل في قلبه لهيب كالنار في الهشيم على الفور، ومنذ ذلك اليوم، أصبح يكد ويجتهد في ملاحقتها، ويحاصرها بنظراته كلما التقاها، ويتبعها بشتى الطرق، وبدا أنه قد ألف قدومها، وسحرته بجمالها ورقتها، وبدأ قلبه يتعلق بها دون أن يشعر، وصار

يفكر فيها دائمًا، وكثيرًا ما كان يسأل صديقتها سارة عنها إذا جاءت إلى المحل دون ان ترافقها سلمى.

وعندما شعر أن صديقه إسماعيل سيكتشف هذا السر عاجلًا أم آجلًا، قرر أن يصارحه بالحقيقة، فأخبره بتعلقه بالفتاة منذ أول نظرة رآها فيها دون أن يشعر، وأن ذلك خارج عن إرادته، فقد خطفت قلبه وشغلت فكره بجمال طلعتها ونقاء روحها الخفيفة، وفي إحدى المرات، استجمع شجاعته وسأل صديقه: "ما رأيك في تلك الفتاة التي تُدعى سلمى؟"

أجاب إسماعيل، وقد احمرت وجنتاه وتشتتت الكلمات في فمه: "آه، إنها فتاة جميلة ومهذبة، وتُعجبني".

قال عدلان: "نعم، رغم صغر سنها، فإنها تبدو فاتنة الجمال، وذكية أيضًا".

رد إسماعيل: "أجمل شيء أن يتعرف الشاب على فتاة في عمرها، ويرشدها إلى مبادئ الحياة حتى تنضج، ثم يتزوجها".

أضاف عدلان: "صحيح ما تقوله، وهو ما أفكر فيه أيضًا، الحقيقة أن سلمى تروق لي وتعجبني، وأفكر جديًا في ربط علاقة بها، لأجسد فعلًا ما كنت تقوله الآن".

قال إسماعيل: "تلك الفتاة السمراء الهادئة الرزينة تبدو حقًا تليق بك، تستطيع مصارحتها عندما تأتي إلى المحل في المرة القادمة، لكن لا تضغط عليها، فهي لا تزال صغيرة، وعليك أن تأخذ الأمر رويدًا رويدًا حتى تقبل بربط علاقة معك".

واعترف عدلان قائلا: "هذا أمر مؤكد، لكن الحقيقة أنني غارق في نوع من الخوف. إنه كالحلم، لم أتخيل يومًا أنني قد أقع في غرام صبية صغيرة، وأتصورها فتاة أحلامي الحقيقية، وأسعى جاهدًا لجعلها شريكة حياتي المستقبلية".

رد إسماعيل: "إنها سنة الحياة يا صديقي، الأيام والسنين تغير تفكير البشر، لم نعد صغارًا نلهو بالفتيات كما كنا سابقًا، بل أصبحنا مقبلين على

بناء حياتنا وتكوين أسرة، لذا، يجب علينا البحث عن زوجاتنا المستقبليات من الآن".

ورأى عدلان أنه ليس من المفيد أن يكشف كل شيء، فتملص من الموضوع قائلًا: "هذه قصة طويلة،"

رد إسماعيل وهو يخرج من عتبة الباب: "استدعني إذا احتجت مساعدتي."

وصار ينتظر مرورها أمام المحل كل يوم، فهو الطريق الذي تسلكه دائمًا إلى الثانوية حيث تدرس، كان يقف عند عتبة المحل ليرمقها بنظراته من بعيد، وبدا أنها فهمت جيدًا ما يجول بخاطره وما تخفيه عيناه، وكثيرًا ما تظاهرت بأنها لم تره، لكنها في الحقيقة كانت تسرق نظرات خاطفة من تحت خصلات شعرها المتدلية على جبينها، وبين صفوف زميلاتها، دون أن يلاحظ هو ذلك، خاصة عندما يلتفت أو يحول نظره عنها، وإذا حدث ألا تمر يومًا، كان يصاب بالاكتئاب والقلق، ويتساءل في قرارة نفسه: "أين اختفت؟"، متخيلًا أن مكروهًا أصابها، أو أنها مريضة طريحة الفراش، لكنها سرعان ما تعاود الظهور في اليوم التالي، وذات مرة، غابت يومين متتاليين، فلما مرت في

اليوم الثالث، التقت نظراتهما، والتصقت عيناهما لبضع لحظات، لكنهما ما لبثا أن انتبها لنفسيهما، فأنزلا عينيهما، ومرت بالقرب منه بتعاطف وود، دون أن ينطق أحدهما بكلمة.

فكر عدلان في الأمر مليًا، حتى اضطرب نومه وأصبح متقطعًا، كان يستيقظ كل لحظة، يشعر بعاطفة جياشة نحوها، دارت في رأسه أفكار قلقة ومؤلمة، وشعر أن هذه الفتاة قد تسبب له متاعب كثيرة، فأوضاعه المعيشية سيئة، لن تساعده على فعل شيء، وفقره وبطالته الطويلة ستحطم كل حلم جميل، وستقف حجر عثرة أمام أي تقدم في حياته، فمثل هذه العلاقات تحتاج منذ البداية إلى تحمل مسؤوليات كبيرة لتصل إلى الزواج، كانت أفكارًا متناقضة تدور في عقله كلما أوى إلى فراشه ووضع رأسه على الوسادة، كان يتقلب يمينًا ويسارًا، ممزقًا بين صراع أفكاره العقلانية التي تحذره: "ابتعد، لا تورط نفسك في علاقة مجهولة النتائج ما دمت تعيش في هذا الواقع القاسي"، وعواطف قلبه المتدفقة التي أحبت الفتاة منذ اللحظة الأولى وتعلقت بها تعلقًا شديدًا، تخبره أنها فرصة العمر ليعيش قصة حب طويلة مع فتاة نقية لم يدنسها أحد، صفحة بيضاء يستطيع أن

يكتب عليها حروفه كما يشاء، فكلما أغمض عينيه، ظهرت صورتها البهية وملامحها الجميلة أمامه، وكلما تقلب، تذكر ابتسامتها البريئة، وأحيانًا، كانت تظهر له في خياله ترقص كفراشة بألوانها الزاهية، فلا يستطيع النوم ولا يغمض له جفن طوال الليل.

وفي إحدى الليالي، نهض عدلان من فراشه، وكتب لها رسالة مطولة عبّر فيها عما يختلج في صدره، ويثير عواطفه، ويضغط على قلبه، ويدور في فكره، اعترف لها بحبه، وبالآلام التي تعتصر قلبه جراء تعلقه بها والتفكير الدائم فيها.

أمسك ورقة وقلمًا، وافتتح الرسالة بعبارات مجاملة وثناء وإطراء عليها، ثم أكملها بجمل تعبر عن حبه وشوقه ولوعته، ووعدها بالوفاء والحب والإخلاص مدى العمر إن وافقت أن تكون حبيبته، وختمها بأبيات شعر تتغنى بالحب والغرام.

وقد جمع في هذه الرسالة تناقضات كثيرة كانت تدور في ذهنه، تملأ قلبه، وتنغص نومه، وبعد أن أفرغ ما في جعبته، غفا لساعتين فقط، ثم استيقظ

في السابعة صباحًا، ارتدى ملابسه مسرعًا، وخرج دون أن يتناول كوب الحليب كعادته، وتوجه إلى المحل، الذي كان لا يزال مغلقًا، وبقي واقفًا أمامه، وبعد دقائق قليلة، ظهر إسماعيل يمشي بتثاقل، يدير مفاتيح المحل بسبابة يده اليمنى، ويحمل كوب قهوة في يده اليسرى، ثم صاح قائلًا:

"صباح الخير! كيف حضرت باكرًا اليوم؟"

رد عدلان: "لم أنم طوال ليلة البارحة، لا أعرف ما الذي أصابني"!

قال إسماعيل وهو يفتح أبواب المحل: "وما الذي أصابك إذن؟ هل أنت مريض؟"

أجاب عدلان وهو يساعده في رفع باب المحل: "لا، لست مريضًا، لكن الأرق أصابني من كثرة الهواجس والتفكير".

سأل إسماعيل: "وفيما كنتَ تفكر طوال الليل إذن؟"

اعترف عدلان: "الحقيقة أنني كنت أفكر في سلمى كثيرًا. لقد شغلت فكري وملأت قلبي، وحيثما ولّيت وجهي تظهر صورتها أمامي وبين عيني".

ضحك إسماعيل بأعلى صوته وقال: "إنه الحب يا صديقي! لقد وقعت في غرامها دون أن تعرف عنها شيئًا، وهذا أمر خطير، قد لا تبادلك الشعور نفسه، فتجد نفسك غارقًا في بحرها وحيدًا دون منقذ، هائمًا على وجهك، باحثًا عن أي قشة تنقذك من الغرق المحتوم".

رد عدلان: "لا يا صديقي، نظراتها وابتساماتها المتكررة لي تنم عن عشق دفين، قلبي هو دليلي ولا يخطئ أبدًا، انا ألاحظها منذ مدة، سواء عندما تأتي إلى المحل لاقتناء حاجياتها، أو حتى حين تمر أمامه، إنها تسترق نظرات تنبض بعاطفة غريبة نحوي".

قال إسماعيل: "إذن، حاول التقرب منها، ربما تنجح في ذلك".

أجاب عدلان: "ليس لدي من واقع الحياة إلا القليل جدًا، لحظات مثل هذه التي أعيشها أعتبرها نادرة في حياتي البائسة، لذا يجب أن أستغلها وأفعل ما يدفعني إليه قلبي".

رد إسماعيل: "إذن، اتبع قلبك ما دام هو دليلك ولا يخطئ، لكن لا تنسَ ما يقوله عقلك دائمًا".

قال عدلان: "بالتأكيد، لذا قررت أن أسلمها رسالة متى جاءت إلى هنا. سأدسها في كتاب سأهديه لها".

ظل عدلان يترقب قدومها إلى المحل لعدة أيام متتالية، لكنها لم تأتِ، وكانت، كعادتها، تمر برفقة صديقتها سارة على الرصيف المقابل من الجهة الأخرى للمحل، فأحيانًا، كانت ترمقه بنظرات بعيدة، وأحيانًا أخرى تمر بسرعة دون أن تلتفت ناحيته، كأنها تتجاهله عمدًا.

انتظر أيامًا أخرى، ثم قرر أن يستجمع شجاعته ويتبعها، خطط ليسلمها الكتاب الذي دس فيه الرسالة، أو يطلب منها القدوم إلى المحل لأمر مهم إذا رفضت الهدية، ليضمن إيصال الرسالة إليها.

في صبيحة أول أيام الأسبوع، استيقظ باكرًا، نحو السابعة صباحًا، ارتدى أجمل ثيابه، وخرج مسرعًا يحمل في يده ذلك الكتاب الذي دس فيه الرسالة التي كتبها منذ أيام، اتجه مباشرة إلى الطريق الذي تسلكه سلمى كل صباح إلى الثانوية، الواقعة في آخر الشارع الذي يقع في وسطه محل صديقه إسماعيل، اختار زاوية، واتكأ على الجدار، وهو في حالة من

الارتباك والحيرة والقلق الشديد، تساوره الوساوس، وتتزاحم في عقله الأفكار، وتتصارع في قلبه العواطف والهواجس معًا.

مرت الدقائق ثقيلة كأنها أعوام، حتى أطلت سلمى بجمالها الأخاذ تمشي على استحياء، وعندما اقتربت ومرت أمامه، نظر إليها بنظرة استطلاع، هدأت نفسه وسكنت روحه من جديد، فتبعها وتقدم نحوها بخطوات ثابتة، وأخذ يمشي إلى جانبها، كان مصممًا على مخاطبتها، لكنه بينما يبحث عن كلمة يبدأ بها، التفتت الفتاة حولها، خفضت رأسها، وانسلت أمامه، وشقت طريقها إلى الرصيف المقابل، عبرت الشارع، وانغمست في الزحام وسط الزقاق، ثم غادرت المكان.

لكنه أصر على التحدث إليها، فعبر الشارع مسرعًا، وشق الحشود التي اندست بينها، ولحق بها، اقترب منها ومشى إلى جانبها، ثم سألها عن حالها بلطف شديد، لم تجب، بل حدقت به طويلًا بعينيها السوداوين اللتين تفيضان تعبيرًا، اعتقد من نظرتها أنها تفهم كل شيء، وأنها تملك وعيًا، لكنها لم تجب لأن هذه عادتها، حتى حين كانت تزور المحل مع صديقاتها، كانت

تجيب باختصار شديد إذا خاطبها، وترمقه بنظرة ثابتة عنيدة، تجمع بين الاضطراب والتساؤل والكبرياء في آن واحد، أدرك أن في نظرتها شيئًا من القسوة ونوعًا من سوء الظن، ابتعد عنها، توقف عن ملاحقتها، وأدار ظهره عائدًا من حيث أتى، أصابه القلق والتوتر، وأخذ يحدث نفسه، تارة يقول: "يستحيل أن تشعر نحوي بكل هذا النفور!"، وتارة يجد لها أعذارًا: "ربما هذه طريقتها في التصرف، أو ربما كانت خائفة من شيء ما؟" ثم يتساءل: "لكن عندما كانت تأتي إلى المحل، كنت أراها تنظر إلي خفية، تتابع حركاتي وتسترق النظر إليّ، أتراها كانت مهتمة بي حقًا؟ أم أنها كانت تقوم بحركات وأفعال أنثوية لا أفهم منها شيئًا؟"

دخل عدلان إلى غرفته مطأطئ الرأس يفكر، وقد أصابه إحباط وتوتر، لكنه قرر أن يعود إليها في ذلك المساء، ويتبعها ليعرف منزلها ومكان إقامتها، ويسلمها الكتاب بأي وسيلة ممكنة، لينهي هذه المسألة دفعة واحدة في هذا اليوم، مهما كلفه الأمر.

وعند الساعة الرابعة، تهيأ من جديد، وخرج مسرعًا متجهًا إلى باب الثانوية، انتظرها لساعة كاملة، حتى لمحها تخرج برفقة زميلتها سارة كعادتها، بدأ يتبعها ويقتفي أثرها خفية دون أن تلاحظه، وقبل أن تصل إلى الزاوية التي انتظرها عندها صباحًا، افترقت عن زميلتها وأكملت السير بمفردها، أسرع عدلان خطواته وتبعها من على بعد عدة أمتار، لكن ما إن حاذى الرصيف بجانب المحلات، حتى التفتت نحوه ورأته يلحق بها، عندها، أسرعت خطاها، قطعت الشارع مهرولة لتبتعد عنه، عاد هو أدراجه مسرعًا إلى الشارع المقابل، وانتقل إلى الرصيف الآخر لئلا يثير شكوكها بأنه يتبعها، لمحها مجددًا، ولم يكن الوقت قد طال كثيرًا، رغم سرعتها في السير، كانت تنظر حولها كل لحظة، حتى توقفت برهة لتتأكد إن كان لا يزال يتبعها، لكنه اختبأ خلف إحدى الأشجار فلم ترَه، استأنفت سيرها، وظل هو يتبعها من الجهة المقابلة دائمًا.

بلغ حب الاستطلاع منه ذروته، وكان مصممًا على معرفة البيت الذي ستدخله مهما كلفه الأمر، مشيا طويلًا حتى وصلا إلى الجهة الأخرى في آخر الشارع الطويل، أخيرًا، دخلت سلمى إحدى العمارات، فعبر وراءها بوابة

العمارة بسرعة منقطعة النظير، وهو يحدث نفسه متسائلًا: "هل ستغضب مني أشد الغضب لأنني تبعتها؟ وربما ستشعر بطعنة تصيب كرامتها؟"

ما إن اجتاز مدخل العمارة، حتى وجدها قد اختفت، ولم يسمع سوى صدى أقدامها تبتعد صاعدةً، همَّ بالخروج واستدار، لكنه سمع صوتًا رقيقًا يناديه عبر الشق الذي يتوسط السلالم الملتوية، استغرب، فعاد ورفع رأسه بين ثنايا ذلك الشق، فلمحها تطل عليه من الأعلى وسط ظلمة السلالم، صعد بسرعة وحذر شديدين، وعندما وصل أمامها، ابتسمت له واحمر وجهها احمرارًا شديدًا، ثم خفضت رأسها، بدت خجولة، لكن شيئًا ناعمًا ورقيقًا أشرق في نظرتها، لما رآها صامتة لا تتفوه بكلمة، قال لها مسرعًا: "أرجو ألا تنزعجي من ملاحقتي المستمرة لكِ، سمعتكِ وصديقاتكِ تتحدثن كثيرًا عن الكتب الفرنسية، فجمعتُ لكِ بعضًا منها، سأحضر لكِ واحدًا في كل مرة بعد أن تكملي قراءة ما قبله." ثم تفحصها بنظرة ثاقبة وسألها: "هل أنتِ مهتمة بها؟"

نظرت إليه بنظرة فاحصة، وأخذت تحدق به بقوة، ثم استلمت الكتاب من يده وقالت: "أجل، نحن بحاجة إليها، شكرًا على اهتمامك." سكتت بعدها، وأطرقت بعينيها، كان واضحًا أنها مرتبكة، قلقة، وخائفة من أن يكتشف أحد من أهلها أو جيرانها أمرها، ثم عادت وقالت له بنظرة متوسلة: "غادر بسرعة، هيا! سنتقابل في المحل متى أردنا ذلك، هيا، هيا..." واستأنفت صعود السلالم، لكنها توقفت، استدارت، وقالت: "أرجوك، لا تتبعني مرة أخرى، سآتي إليك، سآتي متى استطعت".

رد عدلان: "حسنًا، لن آتي إلى بيتك مجددًا، لكن من ماذا تخافين؟"

أجابت بنبرة مختنقة: "أهلي، جيراني، وكل من أعرف".

ثم أضافت، وقد بدأت عيناها تلمعان، وكررت بلهجة حادة وهي ترفع يدها اليمنى: "اذهب، سآتي إليك، اذهب الآن... بسرعة... بسرعة!" واختفت وهي تكمل صعود السلالم.

عاد عدلان من حيث أتى مسرعًا، مهرولًا وهو يشعر بفرحة عارمة، وكان قد سلمها الكتاب الذي دس فيه الرسالة، تلك التي كتبها من أعماق قلبه،

معبرًا فيها عن كل ما دغدغ مشاعره وروحه من أحاسيس رقيقة، واتجه مباشرة إلى المحل.

دخل عدلان وفرحة عارمة تتراقص على ملامحه، فما إن استقر في مقعده حتى التفت إليه إسماعيل قائلاً: "تبدو اليوم مشعًا بالسعادة، ألا تشاركني سرّ فرحتك يا صديقي؟"

تردد عدلان لحظة، وابتسامة خفيفة تعلو وجهه، ثم مرر يده على رأسه وقال: "أخيرًا سلّمتها الرسالة، أشعر وكأن جبلًا ثقيلًا زال عن كتفي، لكن قلبي يرتجف خوفًا من ردّها حين تقرأ كلماتي".

ابتسم إسماعيل وقال: "المهم أنك بُحت بما في صدرك، وأفرغتَ ما يحرّك عواطفك ويملأ قلبك نحوها، لقد تحررتَ من تلك الأفكار المُرهقة التي كانت تُثقل روحك وتسرق النوم من عينيك".

أومأ عدلان برأسه موافقًا: "نعم، هذا ما يهم، كفاني أنني ألقيتُ عن كاهلي ما كان يُزعجني، يشغل بالي، ويُطارد نومي".

أضاف إسماعيل بهدوء: "صدقتَ، مشاعر الحب إن ظلّت سجينة الصمت، تُنهك صاحبها يومًا بعد يوم، تفتّت قواه، وتُذيب جسده شيئًا فشيئًا".

فتحت سلمى باب الشقة، واندفعت إلى الداخل مسرعة، ثم ألقت محفظتها على السرير في غرفتها كعادتها دائمًا، ووضعت إلى جانبها ذالك الكتابً ولم تدرِ بعد ما يخفيه بين صفحاته، ثم استبدلت ملابسها واتجهت مباشرة إلى المطبخ لتحضير وجبة العشاء قبل عودة والدها السيد صالح، الموظف في إحدى الإدارات، الذي يغادر المنزل صباحًا ولا يعود إلا بعد الخامسة مساءً، برفقة والدتها الدكتورة زينب، الطبيبة النسائية التي تمتلك العيادة الوحيدة في القرية، حيث يمرّ والدها بها في طريق عودته ليوصلها إلى البيت، فيما تعود أختاها الصغرى، سناء وسندس، في الوقت ذاته تقريبًا؛ إحداهما لا تزال في المدرسة المتوسطة، والأخرى في الابتدائية.

كانت سلمى، الأكبر بينهن، في السادسة عشرة من عمرها، فتاة جميلة ممتلئة، ذات عينين سوداوين واسعتين، وبشرة سمراء، وشعر بني ناعم وفير، وفمها العذب ويداها الرقيقتان كانتا تزيناها بجاذبية خاصة، كانت

الأقرب إلى والدتها، بوصفها الكبرى التي تعتمد عليها في شؤون المنزل وأمينة أسرارها.

أما سناء، الأخت التي تصغرها بسنتين، فقد بلغت الرابعة عشرة حديثًا، كانت طويلة نحيلة، رقيقة البنية، ذات شعر بني طويل وغزير يُعدّ أجمل ما فيها، تربطه دائمًا فوق رأسها، وعيناها الرماديتان الحادتان وفمها الصارم المضحك يمنحانها طابعًا مميزًا، تدرس في المتوسطة، وتتحلى بخجل لطيف، وصوت حي، وتعبير رقيق، حتى لقّبها والدها "الهادئة الصغيرة"، وسندس، الصغرى التي لم تتجاوز الحادية عشرة بعد، كانت ترى نفسها الأهم بين أخواتها في عيني والدها المدلل لها، رغم حبه المتساوي لهن جميعًا، وبشرتها البيضاء وشعرها الأسود المتدلي على كتفيها جعلاها تبدو أكبر من عمرها، وشابة صغيرة رغم طفولتها الغضة.

بعد أن أعدّت سلمى مكونات العشاء وتركتها تطهو على نار هادئة، دخل والداها، ثم تبعتهما سناء وسندس، فامتلأ المنزل بحركة خفيفة وأصوات مألوفة، انسحبت سلمى إلى غرفتها التي تشاركها أختها، ودفعها الفضول

لاستكشاف الكتاب الذي أهداه إياها عدلان، ما إن فتحته حتى سقطت من بين صفحاته رسالة على الأرض، التقطتها بسرعة خاطفة وأخفتها في صدرها، شاكرة حظها أن الغرفة كانت خالية، وإلا لكانت الكارثة .

إن والدتها الدكتورة زينب، رغم ثقافتها وانفتاحها، كانت محافظة جدًا، لا تسمح لبناتها بعلاقات تثير الشكوك، وتراهن طفلات صغيرات بحاجة إلى الرعاية، مؤجلة أي فكرة عن الحب حتى تخرجهن من الجامعة واستقرار مستقبلهن المهني، أما والدها السيد صالح، الموظف الهادئ المثقف، فيثق ببناته ثقة عمياء، ويكرر دائمًا أنه ربّاهن أفضل تربية، وأنهن لن يحدن عن الصراط المستقيم، ويرى أن منحهم الثقة الكافية، دون تضييق أو مراقبة مستمرة، هو السبيل لضمان استقامتهن.

بدا المشهد وكأنه لوحة حية تمتزج فيها المشاعر المتضاربة، حيث كانت سلمى تعيش لحظة خاصة مليئة بالانفعالات الجياشة بينما العائلة تتجمع في أجواء مألوفة وهادئة، الرسالة التي أخفتها تحت ملابسها كانت بمثابة كنز سري، يحمل في طياته عالماً من الأحاسيس التي نقلتها بعيداً عن الواقع

المحيط بها، كلماتها التي تراقصت أمام عينيها أشعلت في قلبها نبضاً متسارعاً وفرحة غامرة، كأنها تعيش حلماً ورديا لا تريد له أن ينتهي.

"لكن تلك اللحظة الساحرة قُطعت بصوت أقدام والدتها، فأعادتها إلى واقعها بسرعة البرق، الارتباك الذي داهمها جعلها تتعثر في كلماتها، متناسية ذريعة الدروس التي قدمتها مسبقاً، ومع ذلك، استطاعت أن تتماسك بما يكفي لتقول إنها ستأتي لمشاهدة الفيلم البوليسي، وهو النوع الذي تحبه، كما أشارت والدتها.

سلمى وقد توكأت وتبعثرت في فمها الكلمات، ونسيت انها اخبرتهم قبل قليل انها بصدد مراجعة بعض الدروس، فيلم بوليسي ثم فتحت مقلتيها، سآتي حالا يا أمي.

ان سلمى شخصية تمزج بين براءة الشباب وعمق المشاعر الدفينة، محاولة إخفاء سرها الصغير بينما تحافظ على التوازن مع توقعات عائلتها، ربما تحمل تلك الرسالة قصة أكبر، أو تعكس جزءاً من حياة داخلية تعيشها سلمى بعيداً عن أعين الآخرين، ان قلبها سيظل معلقاً بما قرأته؟"

"تأخرت كثيرًا في الرد على رسالته، وغابت عن المحل منذ أيام عديدة، رغم أنَّ صديقتها سارة وبقية زميلاتها جئنَ أكثر من مرة، لم تظهر معهنَّ، فاشتدَّ قلقُ عدلان وتملَّأته الوساوس، لم يدرِ ماذا يفعل، وكان أحيانًا يسأل سارة حين تأتي إلى المحل، فتجيبه بكلمة مقتضبة: 'إنَّها مشغولةٌ هذه الأيام.'

وحتى حين تمرُّ بذلك الشارع في طريقها إلى الثانوية، تختار الجانب المقابل لرصيف المحل، تندسُّ بين زميلتَيْها ولا تلتفت نحوه أبدًا، أما عدلان، فيقف أمام الباب، يراقبها من بعيد، يتحيَّن فرصةً مواتيةً عسى أنْ تتلاقى نظراتهما معًا، لكن يبدو أنَّها تتجاهله عمدًا، كما اعتادت أن تفعل أحيانًا من قبل.

انتظر قدومها أكثر من أسبوعين، حتى ابتعد النوم عن عينيه، وتفاقم قلقه، فشكَّ أنَّ خطبًا ما قد أصابها، أصبح يفكر في ذلك كثيرًا، يرسم في مخيلته ردودًا متخيلة، وأحيانًا أخرى يختلق لها الحجج والأعذار".

"وفي أحد الأيام، جاءته صديقتها سارة وأخبرته أنَّها كلَّفتها بإبلاغه رسالة شفوية قصيرة، قالت فيها: 'إنَّها ترجوك كثيرًا أن تجيءَ إليها غدًا صباحًا

بأقصى سرعة، دون إبطاء، إنَّها تشتاق لرؤيتك حتمًا، وتأمل ألاَّ تُخيِّب ظنَّها، ستكون بانتظارك في الحديقة البلدية، غربي الثانوية'، لم يصدِّق ما سمعه؛ اعترته فرحةٌ جامحة، وخفق قلبه بعنف، فعاد إليه الأمل وغمرت روحه سعادةٌ عارمة، حتى تأخَّر نومه تلك الليلة.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ قبل الموعد بساعة كاملة، وشعر كأنَّه لم ينم أصلًا، لم يدرِ ما أصابه، إذ بدا كأنَّ الزمن قد تجمَّد بالنسبة إليه، ارتدى بدلته المستوردة من القماش الأصلي، وحلق شاربه ولحيته بعناية فائقة، ثم سرَّح شعره القصير إلى الأمام فوق صدغَيْه، ووضع قبعته السوداء فوق رأسه، لم يعد قادرًا على البقاء في غرفته أكثر من ذلك، رغم بقاء بعض الوقت قبل الموعد، خرج مسرعًا بخطى واسعة تشبه المشية العسكرية، متجاهلاً رداءة الطقس ذلك اليوم، أراد أن يمرَّ بزقاقهم، لكنه شعر بالخجل، فعاد على أعقابه دون أن يرفع عينيه إلى نافذتها، كما كان يفعل كلما مرَّ من هناك".

"سار مباشرةً إلى الحديقة، وفي طريقه رآها تدخل عيادةَ أمها الواقعةَ في الشارع الكبير نفسه، اندسَّ في إحدى الزوايا، وبقي يترقَّبها هناك، لم تمضِ سوى دقائق حتى خرجت مسرعةً دون أن تلتفتَ وراءها، تبدو خائفةً ومرتبكةً، لم يتبعها عن قرب، بل انتظر قليلاً في مكانه، ثم سلك الطريقَ الذي سلكتْه، يمشي وهو يقتفي آثارَها، ما إن وطئتْ قدماه الحديقةَ حتى رآها تقف أمام الكرسي الحديدي الصدئ الذي يتوسط الساحة، مواجهًا البركةَ الإسمنتيةَ الصغيرةَ حيث اصطفتْ بعضُ البطات، وتجمَّعت حولها العصافيرُ والحمامُ، تقدَّم نحوها بخفةٍ وهدوءٍ دون أن تسمعَ وقْعَ خطاه، ثم اقترب وناداها باسمها، وقلبه يخفق بسرعة وهو يكبح انفعالَه بصعوبة.

التفتتْ إليه، وقالت بعينيها السوداوين الواسعتين تلتمعان: 'ما الذي دهاك أنْ تُلاحقني هكذا في كلِّ مكان؟ أتظنُّ أنني لم أرَك؟ كنتُ أتظاهرُ بعدم ملاحظتك، حتى لا أجلبَ الشبهاتَ، قد تكتشفُ أمي أمري!'

أجلسها على ذلك المقعد الحديدي، وقال: 'اجلسي هنا، واهدئي من روعك، أنا لن أقدمَ على أيِّ فعلٍ يؤذيك، فلا تخافي أبدًا، كنتُ أقتفي آثارَك

حتى لا تختفي عن نظري'. ثم نظر إليها بحزمٍ وانفعالٍ عاجزٍ عن كبحه، وأردف: 'إنَّك تُعذِّبين نفسي، تمزِّقين قلبي، تَقتلينني! يا سلمى، ما عدتُ أطيقَ الانتظارَ أكثرَ، منذ أن سلَّمتُك تلك الرسالةَ وأنا أنتظرُ ردَّك على أحرِّ من الجمر، أعدُّ الدقائقَ والساعاتِ والأيامَ، لكنَّك لا تأبهين لذلك، حتى اختفيتِ عن الأنظار، ولم تعودي تأتين إلى المحل، وحين تمرّين أمامه تتجاهلين الأمرَ كأنْ لا شيءَ يعنيكِ.'

نظر إليها بشدة، مفتوحَ المقلتين، مقطِّبَ الجبين، وأضاف: 'يجب أن أعرفَ مصيري اليومَ. قد حانَ الوقتُ لأتكلَّمَ أيضًا، لا بدَّ أن أُخرجَ ما يغلي في قلبي'. أشار بسبَّابته اليمنى إلى الجهة اليسرى من صدره، ثم جلس بجانبها على الكرسي الحديدي. أكمل بهدوءٍ ونبرةٍ متوسلة: 'أنا أحبُّكِ، ها أنا قلتُ لكِ كلَّ شيء'.

قاطعته قائلةً: 'ماذا إذن؟ وما في ذلك؟ أعرفُ منذ مدةٍ طويلةٍ أنَّك تحبُّني'، بدت تائهةً تمامًا، خفضتْ عينيها، واحمرَّتْ وجنتاها بحمرةٍ شديدة، أكملتْ بصوتٍ مرتعشٍ وعاطفةٍ خفية: 'أنا أحبُّك باختصارٍ، نعم، أنا أحبُّك

أيضًا، بقدرِ ما تحبُّني. لستُ متكبِّرةً كما تتصوَّر'، كان انفعالُها قويًا جدًا، حتى عجزتْ عن إتمام جملتها، وقالت ذلك بصوتٍ ضعيفٍ مبحوح.

نهضتْ مسرعةً، وقالت: 'هيا، يكفي الآن، الوداع، إلى اللقاء'، هزَّتْ رأسَها، وانطلقتْ كالسهم نحو البوابة، وغادرتْ الحديقةَ دون أن تلتفتَ.

بقي عدلان جامدًا في مكانه، يتابعها بنظراته، نفذتْ كلماتُها إلى أعماق روحه حين توارتْ عن الأنظار، إنَّ عواطفَها، التي حبستْها طويلاً، انفجرتْ الآن انفجارًا عنيفًا لا سبيلَ لكبحه، أدرك حينئذٍ عنادَ قلبها المغلقَ بالخجل.

كان عدلان يشتاقُ لرؤية سلمى في أيام العطل الفصلية، كان يذهبُ كلَّ مساءٍ إلى حيِّها، ويجلسُ تحت شجرة الصفصاف المقابلة لعمارتهم، حتى وقتٍ متأخِّرٍ من الليل، عسى أن يظفرَ بطلَّةٍ منها أو إشارةٍ تدلُّ على ملاحظتها له، كان قلبه يخفقُ كلَّما مرَّ خيالٌ وراء الشُّباك، وتغمرُه سعادةٌ جارفةٌ إذا انطفأتِ الأنوار، متخيِّلاً أنَّها ربما رأته وتنظرُ إليه خلسةً، وفي أمسيات الجمعة، يبكِّرُ بالمكوثِ هناك، طمعًا في نظراتٍ أو ابتساماتٍ حين تمرُّ صباحًا مع أختَيْها، سندس وسناء، إلى حمَّام الحيّ.

كانت لقاءاتُهما نادرةً جدًا، تقتصرُ على زياراتها لمحلِّ صديقه إسماعيل لشراء بعض الحاجيات، لقاءاتٍ خاطفةٍ لا تتجاوز تسليمَ رسائلَ غراميةٍ وهدايا وبطاقاتِ معايدةٍ للمناسبات".

"وفي إحدى الليالي المقمرة، بينما كان عدلان جالسًا كعادته تحت شجرة الصفصاف، وكانت تلك الليلة تتزامن مع عيد ميلاده، أطلَّتْ سلمى من نافذتها وأشارت إليه بيدها أن يتقدَّمَ نحوها.

نهضَ سريعًا، وفي لمحِ البصر كان واقفًا تحت نافذتها.

رمتْ له كيسًا ملونًا بألوانٍ متداخلة، فخطفه مباشرةً وعاد إلى مكانه تحت الشجرة، فتح الكيسَ ليتفاجأ بما فيه: إنَّها المرةُ الأولى في حياته التي يتلقَّى فيها هديةً بعيد ميلاده، كان دبًّا أحمرَ صغيرًا، وقارورةَ عطرٍ مستوردة، وبطاقةَ معايدةٍ تحملُ أجملَ عبارات التهاني وتمنِّياتها له بطول العمر، ورسالةً فتحها ليقرأها. كتبتْ فيها:

'إلى الإنسان الذي صبرَ على كبريائي طوالَ هذه المدة، إلى من بقي إلى جانبي في كلِّ الظروف، بعد تردُّدٍ وخوفٍ داما طويلًا، اكتشفتُ حين اقتربتُ

منكَ أنَّك الوحيدُ الذي يستحقُّ أن يسكنَ قلبي وأمنحه ثقتي، أردتُ في عيد ميلادك أن أقولَ لكَ: أحبُّك، وسأكونُ لكَ وحدَك، وأبقى إلى جانبك إلى آخر العمر، هنيئًا لكَ بقلبي الصغير الذي أرجو أن تحافظَ عليه وتصونه، أنا لكَ وحدَك إلى الأبدِ.'

فرح عدلان بما قرأه بعينيه، اجتاحته موجةُ حبٍّ وسعادةٍ لم يعرفْها من قبل، وأحسَّ كأنَّه يحلِّقُ في أفقٍ بعيدٍ، عاد إلى غرفته، وقرأ الرسالةَ مرةً أخرى، ثم أعاد قراءتَها مراتٍ عديدة، احتضنَ الدبَّ الأحمرَ الصغيرَ، وأغدقَه بالقبلات، وأخذَ يشمُّ قارورةَ العطر، يستنشقُ رائحتَها بعمقٍ ويبعثُها إلى أعماق صدره، لم تغفُ عيناه تلك الليلةَ إلا مع بزوغ الفجر.

أصبحتْ سلمى كالهواء النقيِّ الذي يتنفَّسه، تسري في عروقه كالدم، لم يعد يطيقَ فراقَها أو البعدَ عنها، وصار يخافُ عليها من كلِّ مكروه، ويغارُ من أبسط الأشياء، تحكَّمَ حتى في طريقة لباسها، لا يرضى إلا بالملابس المحتشمة التي تسترُ جسدَها وتخفي مفاتنَها، وكثيرًا ما تشاجرَ مع شبَّانٍ يرتادون طريقَ الثانوية ويعاكسون الفتيات، إذا تغزَّل بها أحدهم أو أمعنَ

فيها النظرَ، وإذا بلغه خبرُ تحرُّشٍ أو مضايقةٍ لها، لم يهدأ له بالٌ حتى يواجهَ المتسبِّبَ، يتشاجرُ معه ويحذِّره من مغبَّة تكرارِ الأمر أو حتى النظر إليها، رأى نفسه روحًا لها، يعاملها برقَّةٍ وحنانٍ، يسألُها عن كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، ويحثُّها على الصراحة، يسدي إليها النصائحَ، ويشجِّعُها على الدراسة، كان يؤاخذُها أحيانًا على أخطائها الصبيانية، يحذِّرُها من تكرارها، ويبذلُ جهدًا مستمرًا في ذلك.

كانا يتبادلان الرسائلَ في أغلب الأوقات، وكثيرًا ما قدَّمَ لها النصائحَ دون تطلبها، ويرى أنَّه يذكِّرُها دائمًا ويربِّيها على ما يحبُّ ويرضى، كانت تُصغي إليه بانتباهٍ كبيرٍ كلَّما التَقَيا، تستشيرُه في كلِّ أمرٍ يخصُّ حياتَها، وتقصُّ عليه تفاصيلَ ما يحدثُ في غيابه، كان يثني عليها بالنظرةِ والكلامِ كأنَّها طفلةٌ صغيرة، رأتْ أنَّ عليها إخبارَه بتفاصيلَ دقيقةٍ وصراحةٍ كاملةٍ عن أعمالها الجيِّدة، والاعترافَ له بما لا يرضيه، اندمجتْ روحاهما، حتى صار كلٌّ منهما يحسُّ بفرحِ الآخر أو أذاه، وإنْ كانا بعيدَيْن عن بعضهما".

"كانا يلتقيان أحيانًا حين تسمحُ لهما الفرصُ على قِلَّتها، لكنَّه في أغلب الأوقات كان ينتظرُ حتى تستدعيه بنفسها متى سنحتْ لها فرصةُ اللقاء.

وفي آخر أيام السنة الدراسية الأخيرة بالثانوية، وقبل اجتيازها مسابقةَ الباكالوريا، طلبتْ منه لقاءً عاجلاً في الغد، في مكان لقائهما المعتاد بالحديقة العمومية.

نهضَ صباحًا باكرًا كعادته عندما يكون لهما موعدٌ، وأسرعَ إليها.

كانت تنتظرُه على أحرِّ من الجمرِ، واستقبلته بلومٍ مباشرٍ، كانت قلقةً أشدَّ القلقِ، وكادَا أن يتشاجَرا، وجَّهتْ له عتابًا حادًا مريرًا، ثم ارتمتْ على عنقه، شدَّتْه إليها بذراعَيْها، ورجَتْه ألاَّ يغضبَ منها، لأنَّها ستُخبره بخبرٍ سيُصدمه، قالتْ بلهجةٍ ممزوجةٍ بالبكاء: 'إنَّ والدي قرَّرَ أن يُسجِّلني في إحدى الجامعات البعيدة حيث بيتُ جدِّي بالمدينة الساحلية، لا يريدُ لي البقاءَ في الإقامة الداخلية، بل أن أمكثَ عند جدِّي'، فجأةً أجهشتْ بالبكاء، وتحوَّلَتْ دموعُها شيئًا فشيئًا إلى نحيبٍ، أضافتْ بصوتٍ مبحوحٍ اختلطَ بالدموع: 'أنا أحبُّك... لا أحدَ أحبَّني غيرَك... لا أستطيعُ فراقَك أو

الابتعادَ عنك'. خنقتْها الدموعُ، فانفجرتْ ببكاءٍ عنيفٍ، ثم سألتْه: 'هل تحبُّني؟ هل تحبُّني كما أحبُّك؟'

احتارَ عدلانُ ماذا يفعلُ، فجاءَ بماءٍ وبلَّلَ صدغَيْها وجبينَها، بقيَ صامتًا ينظرُ إليها، يضمُّها بذراعه اليمنى، ينتظرُ أن تفرغَ قلبَها وتهدأَ.

هدأتْ تدريجيًا، لم ترفعْ رأسَها، واختلستْ إليه النظرَ مرةً أو اثنتين بعينَيْن مليئتَيْن بالرقَّة.

أجابَها وهو يمسحُ دموعَها، يجذبُ رأسَها إلى صدره، يضمُّها بقوةٍ، ويمرّرُ كفَّيه على خدَّيْها: 'لا تخافي ولا تفكّري في أشياءَ لم تأتِ بعد، ركّزي على مراجعة دروسكِ لتنالي شهادةَ الباكالوريا، وبعدها سنرى ماذا نفعلُ، ربما أنتقلُ للعيش قربَكِ، أكيدٌ أنني سأفعلُ ذلك دون شكٍّ.'

مضتِ الأيامُ سريعةً كالسحابِ، حتى جاءَ يومُ الفصل الموعودِ: امتحانُ الباكالوريا، كانت أيامًا عصيبةً، تبيتُ سلمى حتى الفجرِ تراجعُ دروسَها، وعدلانُ يراقبُها من بعيدٍ، يشجّعُها بروحِه وكلِّ جوارحه، يقفُ خلفَها بكلِّ ما أوتيَ من قوةٍ.

وبعدَ أسبوعِ المسابقةِ، استكانتْ سلمى إلى الراحةِ، ظلَّتْ حبيسةَ البيتِ لا تغادرُه إلا للضرورةِ، وبعدَ قرابةِ شهرٍ، أُعلنتْ نتائجُ المسابقةِ، كانت الصدمةُ عظيمةً: رسبتْ سلمى، إذ لم تكنْ نسبةُ النجاحِ كبيرةً، وكانت أسئلةُ الامتحاناتِ معقَّدةً وصعبةً للغاية، حبستْ نفسَها في غرفتِها طوالَ الصيفِ، بكتْ حتى جفَّتْ دموعُها.

وفي أولِ أيامِ سبتمبر، مع بدايةِ الدخولِ المدرسيِّ، نقلَها والدُها إلى الثانويةِ بالمدينة الساحلية حيث يقطنُ جدُّها لأمِّها، وسجَّلَها في مدارسَ خاصةٍ لدروسِ التدعيمِ المسائيةِ، في يومِ ذهابِها، وقفَ عدلانُ تحتَ شجرةِ الصفصافِ يراقبُ مغادرتَها من بعيدٍ، التقتْ نظراتُهما بحزنٍ عميقٍ، تابعَ سيارةَ والدِها تتوارى عن الأنظارِ وتتلاشى في الطريقِ، ثم عادَ إلى غرفتِه، قد أصابَه حزنٌ شديدٌ، ما إن أغلقَ بابَ غرفتِه حتى امتقعَ وجهُه، وسقطَ على الأرضِ مغشيًا عليه كالميّتِ، ماذا كان عليه أن يفعلَ؟ فكَّرَ طويلًا، وتحسَّرَ كثيرًا، أخيرًا، اتَّخذَ قرارًا بالابتعادِ وإنهاءِ كلّ شيءٍ ذلك المساءِ، نظرَ إلى نفسِه وقال: 'أنا شابٌّ فقيرٌ لا أملكُ شيئًا، وليس لديَّ حتى مكانٌ مناسبٌ أركنُ إليه، بماذا سأعيشُ؟ حتى لو لحقتُها كما وعدتُها، فأهلي الذين اعتدتُ

المكوثَ عندهم بضعَ أيامٍ خلالَ العطلِ الصيفيةِ أو زياراتٍ خاطفةٍ أحيانًا، سيضجرونَ منّي، لن يتحمَّلوني أكثرَ من أسبوعٍ على أقصى تقديرٍ'، ازدحمتِ الأفكارُ المتناقضةُ في رأسِه، اختلطتِ العواطفُ والأحاسيسُ في قلبِه، تصارعتْ في روحِه ووجدانِه، تراكمتْ في ذهنِه من جديدٍ، بلا قدرةٍ أو إرادةٍ لحلِّها.

عادَ وحيدًا كما كانَ، ذهبتْ سلمى، الجدارُ الذي بناهُ ليتكئَ عليه، مؤنسةُ وحدتِه التي كان يفرغُ لها همومَه، القشَّةُ التي تشبَّثَ بها وسطَ بحرٍ عميقٍ، تحملُه بينَ أمواجٍ تلطمُه من كلِّ جانبٍ، أحسَّ أنَّ جزءًا من جسدِه بُترَ، وأنَّ فؤادَه انتُزعَ منه، عادَ إلى ذلك النفقِ الأجوفِ الذي له بدايةٌ بلا نهايةٍ، وتزدادُ ظلمتُه كلَّما تعمَّقَ فيه.

كان يخرجُ من المنزلِ إلى محلِّ إسماعيلَ، يمكثُ حتى منتصفِ النهارِ، ثم يعودُ لينامَ طوالَ المساءِ حتى المغربِ، ثم يخرجُ بعدَ العشاءِ، يمشي بينَ الأزقةِ والشوارعِ بلا هدفٍ، لا يدري أينَ يذهبُ، يعودُ ليجلسَ تحتَ شجرةِ الصفصافِ، يندبُ حالَه وحظَّه العاثرَ، يمرُّ شريطُ ذكرياتِه أمامَ عينيه،

يسأمُ سريعًا، ينهضُ من جديدٍ دون أن يعلمَ أينَ يتَّجهُ، فأصعبُ شيءٍ ألاَّ تجدَ مكانًا تذهبُ إليه، أو جدارًا تسندُ ظهرَكَ عليه، يعودُ إلى غرفتِه، يجفو النومُ عينيه، يتقلبُ في فراشِه، تغزو الأفكارُ السوداءُ رأسَه، يتخيَّلُ أنَّه سيفقدُ رفيقتَه بعدَ أن بنى أحلامَه معها.

اشتدَّ به الخوفُ من البقاءِ وحيدًا، فصارَ يتسكَّعُ في البلدةِ، يعاني اضطرابًا عميقًا دونَ أن يفهمَ ما يحدثُ له، طافَ في الشارعِ الرئيسيّ الذي كانت تسلكُه سلمى، تنزَّهَ في الحديقةِ، جلسَ طويلًا على ذلك الكرسيّ الحديديّ حيث كانا يلتقيان، رمى حجارةً في البركةِ المقابلةِ، تجوَّلَ على الأرصفةِ، مشى طويلًا بلا توقُّفٍ، حتى اصبح ينسيَ أينَ كانَ، ولا يعرفْ أينَ يذهبُ، وأحيانًا يجدَ نفسَه على أطرافِ القريةِ، مرَّتِ الأيامُ، كادَ ان يفقدَ عقلَه، ما عادَ يجلسُ هادئًا، يقرأُ دونَ أن يقرأَ، يضحكُ أحيانًا لوحده، يتذكَّرُ لحظاتِه مع سلمى فيبكي ببساطةٍ، وهكذا صارتْ عادتَه، أخيرًا، نحفَ جسدُه، كما يحدثُ حين تصيبُه نوباتُ الوحدةِ والعزلةِ، وكادَ يسقطَ أرضًا".

"ظلَّ على تلك الحالِ بضعَ أشهرٍ، يزدادُ تعلُّقُه بها يومًا بعدَ يومٍ، اشتاقَ إلى رؤيتِها كثيرًا، وفكَّرَ مليًّا في زيارتِها، لكنَّ ظروفَه القاسيةَ وقلةَ المالِ حالتْ دونَ ذلك، فالسفرُ إلى المدينةِ الساحليةِ، التي تبعدُ نحوَ مئتي ميلٍ عن البلدةِ، مكلفٌ بعضَ الشيءِ، ورغمَ أنَّه سيبيتُ في منزلِ أقربائِه كما اعتادَ، الا انه لم يكنْ باستطاعتِه توفيرَ أجرةِ السفرِ أو المكوثِ هناك بضعةَ أيامٍ، كان قلبُه يحترقُ شوقًا وحنينًا، ولا حيلةَ له سوى الصبرِ عسى أن تتحسَّنَ ظروفُه يومًا ما.

وفي أحدِ الأيامِ، مرَّ كعادته بمحلِّ صديقه إسماعيلَ ليمكثَ برفقتِه بعضَ الوقتِ، وما إن دخلَ المحلَ حتى رحَّبَ به إسماعيلُ قائلاً: 'مرحبًا، كيفَ حالُك يا صديقي؟ أراكَ قلقًا ومهمومًا، منذُ غادرتْ سلمى البلدةَ وأنتَ لستَ بأفضلِ حالٍ؟'

جلسَ عدلانُ بجانبِه، وقالَ: 'صحيحٌ، افتقدتُها ولم أطقْ غيابَها وبُعدَها عنِّي'

ربَّتَ إسماعيلُ على كتفِه، وسألَه: 'لماذا لا تذهبُ لزيارتِها؟'

أجابَ عدلانُ: 'أنتَ تعرفُ يا صديقي أنني لا أملكُ المالَ الكافيَ لتلكَ الرحلةِ، حتى لو مكثتُ يومًا واحدًا'.

قالَ إسماعيلُ: 'آه، تذكَّرتُ! إنَّ أخي سليم يبحثُ عن سائقٍ لشاحنتِه الصغيرةِ التي اشتراها مؤخرًا، لنقلِ البضائعِ من البلدةِ إلى محلِّه بالعاصمةِ، ولخدمةِ نقل بضائع تجارٍ آخرينَ في بقيةِ الأيامِ'.

ردَّ عدلانُ: 'أنتَ تعرفُ أنني لا أملكُ رخصةَ قيادةٍ'.

أجابَ إسماعيلُ: 'أعرفُ ذلك، سأدفعُ لكَ تكاليفَ التسجيلِ في مدرسةِ تعليمِ القيادةِ لتحصلَ على رخصةِ السياقةِ في أقربِ وقتٍ، اعتبرْها هديَّةً منِّي، ولا تحملْ همًا أبدًا'.

اغرورقتْ عينا عدلانَ بالدموعِ، نهضَ مسرعًا، ضمَّ إسماعيلَ إلى صدرِه بقوةٍ، وقالَ: 'لا أعرفُ كيفَ أردُّ إحسانَكَ المتواصلَ يا صديقي!'

حاولَ إسماعيلُ تهدئتَه: 'لا تحملْ همًا، سأساعدُكَ دائمًا متى احتجتَني بما أستطيعُ.'

قالَ عدلانُ: 'سأعودُ حالاً إلى البيتِ، ومن هناكَ إلى مصلحةِ الحالةِ المدنيةِ بالبلديةِ لاستخراجِ الوثائقِ المطلوبةِ، ثم أسجِّلُ في مدرسةِ تعليمِ القيادةِ هذا المساءَ، لن أنتظرَ لحظةً!' خرجَ مسرعًا، انطلقَ كالسهمِ، والفرحةُ تغمرُ قلبَه، عادَ ذلكَ اليومَ إلى البيتِ، أخذَ الدفترَ العائليَّ من والدتِه، وتوجَّهَ إلى مصالحِ الحالةِ المدنيةِ، استخرجَ الوثائقَ الإداريةَ، ثم مرَّ بمدرسةِ تعليمِ القيادةِ وسجَّلَ فيها، مُخبرًا إيَّاهم أنَّه سيسدِّدُ المبلغَ لاحقً، استمرَّتْ دراستُه في مدرسةِ السياقةِ شهرًا كاملاً، حصلَ على رخصةِ القيادةِ كواحدٍ من أوائلِ دفعتهِ، قدَّمه إسماعيلُ لأخيه سليمٍ، توسطَ له ليمنحَه العملَ رغمَ حداثةِ رخصتِه.

بدأَ عدلانُ عملَه على الشاحنةِ الصغيرةِ من أولِ يومٍ دونَ تفاوضٍ على الأجرةِ، إذ ينالُ السائقُ ثلثَ ثمنِ كلِّ رحلةٍ كما هو متعارفٌ علي، كانت البضائعُ، المهرَّبةً والمستوردةً، تصلُ إلى مستودعِ سليمٍ في البلدةِ، يستقبلُها إسماعيلُ، ويشرفُ على تعبئتِها في علبٍ كرتونيةٍ مع أربعةِ حمالينَ يؤجِّرهم عندَ الحاجةِ، حيث يستخرجونَها من أكياسٍ سوداءَ ملفوفةٍ بعنايةٍ لتحميها من التلفِ عبرَ المسالكِ الجبليةِ، عند تهريبها عبر الحدود البرية، ويُلصقونَ

عليها علاماتٍ جديدةً كأنَّها مستوردةٌ شرعيًّا، وتخلط ببضائعَ أخرى مستوردةٍ حقًّا لتمريرِها إلى العاصمةِ دونَ إثارةِ شكوكِ الجمارِكِ أو الدركِ عندَ نقاطِ التفتيشِ.

انخرطَ عدلانُ في العملِ، ينقلُ بضائعَ سليمٍ إلى العاصمةِ، وفي أيامٍ أخرى ينقلُ بضائعَ تجارًا يقصدونَ البلدةَ من أنحاءِ الوطنِ، يشترونَ سلعًا مستوردةً ومهرَّبةً عبرَ الحدودِ القريبةِ، امتلأَ فراغُه، زالَ اكتئابُه، سلكَ طرقًا عديدةً، تعرَّفَ على تجارٍ من مدنٍ وقرىً مختلفةٍ، كان يحملُ أمتعتَه، وينامُ في الشاحنةِ في المسافاتِ البعيدةِ، ومع الوقتِ، ادَّخرَ مالاً، وتحسَّنتْ أحوالُه تدريجيًا.

وذاتَ يومٍ، جاءَه تاجرٌ من المدينةِ الساحليةِ حيثُ تقيمُ سلمى، طلبَ نقلَ بضائعَ إلى هناك، طارَ عدلانُ فرحًا، تذكَّرَ المكانَ الذي دلَّتْه عليه قبلَ مغادرتِها القرية، شحنَ البضائعَ، عادَ إلى بيتِه، ارتدى أفضلَ ملابسِه، وانطلقَ كالبرقِ نحوَ حبيبتِه، كان يقودُ على عجلٍ، وعواطفُه ترقصُ في قلبِه، وأفكارُه تتزاحمُ في رأسِه، لا يشغلُه سوى لقاءِ سلمى التي لم يرَها منذُ أكثرَ

من سنةٍ، حتى حينَ نالتْ الباكالوريا، لم يتمكَّنْ من تهنئتِها، إذ لم تعُدْ إلى البلدةِ، وانتقلتْ إلى الجامعةِ هناك.

بعدَ أربعِ ساعاتٍ من السيرِ، وصلَ المدينةَ الساحليةَ الكبرى، اتَّجهَ إلى مستودعاتِ التاجرِ في أطرافِها، أفرغَ البضائعَ وقبضَ أجرَه، ثم سارَ كالسهمِ إلى الجامعةِ الكبرى على مشارفِ المدينةِ، كانت الساعةُ الثالثةَ بعدَ الظهرِ، ركنَ شاحنتَه على ربوةٍ عاليةٍ تُطلُّ على البوابةِ الرئيسيةِ، يراقبُ منها الداخلينَ والخارجينَ، انتظرَ أكثرَ من ساعةٍ، يترقَّبُ، ينزلُ أحيانًا حينَ يرى فتاةً تشبهُها، ثم يعودُ بعدَ أن يتبيَّنَ خطأَه، استمرَّ ساعةً ونصفَ، حتى خرجتْ سلمى بأناقتِها المعتادةِ مع زميلاتِها، هرولَ نحوَها، اقتربَ، ناداها باسمِها، التفتتْ، تبسَّمتْ، تركتْ رفيقاتِها، واتَّجهتْ إليه مسرعةً.

قالتْ: 'مرحبًا، كيفَ حالُك؟ كيفَ وصلتَ إلى هنا؟' رمقته بنظرةٍ سريعةٍ، توردتْ وجنتاها، التمعتْ عيناها فرحًا، اقتربتْ خطوتينِ، أحاطتْه بذراعَيْها فجأةً، ضمَّتْ صدرَه إلى وجهِها بعنفٍ، وقالتْ: 'اشتقتُ إليكَ كثيرًا'.

ضمَّها بقوةٍ، وقالَ: 'وأنا أيضًا اشتقتُ إليكِ، تركتِ في روحي فراغًا رهيبًا'، أمسكَ ذراعَها، اقتادَها إلى الشاحنةِ، ركبا معًا، وانطلقَ بها إلى شاطئِ البحرِ حيثُ كان يذهبُ صغيرًا في العطلِ الصيفيةِ".

"سألتْه سلمى: 'من أينَ حصلتَ على هذهِ الشاحنةِ؟ هل وجدتَ عملًا؟'".

أجابَ عدلانُ وهو يقودُ بسرعةٍ، ويتجاوزُ بعضَ السياراتِ: 'نعم، تحصَّلتُ على عملٍ مع سليمٍ، أخو إسماعيلَ، أنقلُ له بضائعَه متى وصلتْ، وأعملُ بها لبعضِ التجارِ في بقيةِ الأيامِ'.

قالتْ سلمى: 'كأنَّ اللهَ بعثَها إلينا لتقرِّبَنا من بعضِنا'.

أضافَ عدلانُ: 'صحيحٌ، عانيتُ الأمرَّينِ بعدَ فراقِكِ، ولا زلتُ كذلكَ، لكنَّ العملَ أشغلَني وخفَّفَ عنِّي بعضَ الشيءِ.'

وصلا إلى ذلكَ الشاطئِ الذي يبعدُ سبعةَ أميالٍ عن وسطِ المدينةِ، ركنَ شاحنتَه، نزلا يسيرانِ معًا على الرصيفِ المقابلِ للشاطئِ، وأمواجُه تتلاطمُ على الصخورِ المنتشرةِ على الجانبَيْنِ، جلسَا على تلكَ الصخورِ المتراكمةِ

أسفلَ ربوةٍ عاليةٍ، يراقبانِ الأمواجَ، شعرَا أنَّ البحرَ وحدهُ يفهمُ ما في قلبَيْهما، كأنَّه شاهدٌ صامتٌ يحتضنُ أسرارَهما.

قالَ عدلانُ بصوتٍ مفعمٍ بالشوقِ: 'كنتُ أشتاقُ إليكِ طوالَ هذا الوقتِ، وأحمدُ اللهَ أنْ حصلتُ على عملٍ يساعدُني على الوصولِ إليكِ بينَ الحينِ والآخرِ'.

أجابتْ سلمى: 'صحيحٌ، إنَّه كضربِ عصفورَيْنِ بحجرٍ واحدٍ، من جهةٍ حصلتَ على عملٍ يقيكَ الحاجةَ، ومن جهةٍ أخرى يتيحُ لكَ السفرُ فرصَ اللقاءِ بي كثيرًا'.

مكثَا يتأمَّلانِ أمواجَ البحرِ، يتبادلانِ حكاياتٍ عن أحداثِ غيابِهما، يسألُ كلٌّ منهما الآخرَ عن كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ مرَّتْ بهما، مشَيَا طويلًا على الرصيفِ ذهابًا وإيابًا، جلسَا على أحدِ الكراسيِّ الحديديةِ الموضوعةِ قبالةَ الشاطئِ، يراقبانِ طيورَ النورسِ تحلِّقُ في السماءِ، يتأمَّلانِ الأمواجَ من جديدٍ.

انتبهتْ سلمى إلى عجوزَيْنِ متأنِّقَيْنِ جالسَيْنِ على كرسيٍّ قريبٍ، كانت العجوزُ تضمُّ ثلاثَ وردةٍ حمراءَ إلى صدرِها بسعادةٍ لا تُوصفُ، كأنَّها

تحتضنُ كنزًا، تخيَّلتْ سلمى فرحةَ العجوزِ وهو يقدِّمُ الوردَ لرفيقةِ دربِه، ورأتْ نفسَها وعدلانَ بعدَ ستينَ عامًا، عائدَيْنِ من غداءٍ احتفاليٍّ بعيدِ زواجِهما، يعبرانِ عتبةَ شقتِهما، ينظرُ إليها بحبٍّ، يضمُّها إلى صدرِه، صحتْ من تأمُّلِها، وقالتْ: 'أتمنَّى أن نكبرَ معًا، نصبحَ مثلَ هذَيْنِ العجوزَيْنِ، وحبُّنا يدومُ لا يذبلُ مهما تقدَّمَ بنا العمرُ، ويخلدَ إلى الأبدِ'.

ضمَّها عدلانُ إلى جنبِه بذراعٍ واحدةٍ، وقالَ: 'أجلْ، لا شيءَ سيفرِّقُنا، سنبقى معًا للأبدِ.'

مع غروبِ الشمسِ، ركبا الشاحنةَ، أوصلَها على بعدِ زقاقَيْنِ من منزلِ جدِّها حيثُ ستبيتُ تلكَ الليلةَ قبلَ عودتِها إلى الإقامةِ الداخليةِ، ودَّعَها بعدَ رسمِ خطةٍ لمواعيدِهما القادمةِ، ثم انطلقَ عائدًا إلى البلدةِ والليلُ يرخي سدولَه، يفكِّرُ فيما حدثَ بينَهما.

كانت سلمى حافزَه الأكبرَ، اتَّفقَا على الخطبةِ بعدَ تخرُّجِها من الجامعةِ، التي ستستغرقُ خمسَ سنواتٍ: ثلاثٌ لليسانسِ واثنتانِ للماسترِ، اجتهدَ في عملِه، وهو يتخيَّلُ حياتَهما معًا في بيتٍ صغيرٍ يملؤُه الحبُّ والأطفالُ، كان

عملُه شاقًا، رحلاتُه إلى العاصمةِ لنقلِ بضائعِ سليمٍ تستغرقُ أيامًا، وأحيانًا يسافرُ مع تجارٍ إلى أسواقٍ وطنيةٍ كبرى، يقضي لياليَ في محطاتِ الوقودِ أو الأسواقِ الأسبوعيةِ، وقلَّما يجدَ وقتًا للراحةِ، وعندَ عودتِه ينامُ طويلًا ليعوّضَ التعبَ.

اشتهرَ بينَ التجارِ بالثقةِ وحسنِ المعاملةِ، يقتنعُ بالقليلِ، يجودُ على الجميعِ، ومكَّنَه ذلكَ من أخذِ السلعِ على الحسابِ من شركاتِ الاستيرادِ، يبيعُها في الأسواقِ الوطنيةِ، يسدِّدُ ثمنَ المباعِ، ويحتفظُ بالربحِ، ومن حسنِ الحظِّ، أن صديقُه إبراهيمُ أصبحَ من كبارِ المستوردينَ بعدَ استفادتِه من قانونِ المصالحةِ الوطنيةِ، حيث حصلَ على محلٍّ تجاريٍّ وقرضٍ ماليٍّ، وساعدَ عدلانَ بسلعٍ على الحسابِ بأسعارٍ مخفَّضةٍ.

تحسَّنتْ أحوالُه الماديةُ، ادَّخرَ مالاً في حسابِه البريديِّ، واشترى شاحنةً صغيرةً، وصارَ محترفًا في التجارةِ ونقلِ البضائعِ، وأصبحَ قلَّما يجدَ وقتًا لرؤيةِ سلمى، لكنْ إذا سنحتْ له فرصةٌ، يذهبُ مسرعًا دونَ إخبارِ أحدٍ، ويتواصلانِ بالرسائلِ البريديةِ في الأيامِ الأخرى.

وفي آخرِ السنةِ الدراسيةِ، وصلتْه رسالةٌ تدعوهُ للقائِها بعدَ أسبوعٍ على الشاطئِ. غمرَتْه الفرحةُ، هيَّأَ نفسَه، وانطلقَ مشتاقًا، رآها من بعيدٍ متكئةً على الحاجزِ الحديديّ، اقتربَ، ناداها بصوتٍ هادئٍ مليءٍ بالشوقِ، التفتتْ، هرولتْ إليه، ضمَّتْه بقوةٍ، وقالتْ بعينَيْنِ تلمعانِ: 'لماذا تأخَّرتَ كلَّ هذا الوقتِ؟'، أجابَ: 'تعوَّدتُ الدقَّةَ، لكنَّ الازدحامَ أبطأَني اليومَ'،أجلسَها على الكرسيّ الحديديّ، جلسَ بجانبِها، وضعتْ رأسَها على كتفِه، ثم انحنتْ إلى صدرِه، ذرفتْ دموعًا غزيرةً دونَ كلامٍ، واساها، حاولَ تهدئتَها، لكنَّها ضغطتْ على يدَيْه وقالتْ بصوتٍ ضعيفٍ: 'اشتقتُ إليكَ، أنهكتْني الدراسةُ وبُعدي عنكَ، سئمتُ صخبَ المدينةِ، اشتقتُ إلى سكينةِ القريةِ رغمَ بؤسِها'، نظرتْ إليه، أضافتْ: 'لا تظنَّني قويةً أتحمَّلُ التغييرَ بسهولةٍ'. احتضنَها بحنانٍ، قالَ: 'أنتِ رقيقةٌ، سريعةُ التأثُّرِ، لم تعتادي الاعتمادَ على نفسِكِ'.

وغنَّيَا معًا، وضمَّها في فرحِ لقائِها وانتشائه، فاحمرَّتْ وجنتاها خجلاً، وضحكتْ ودموعُها ترتعشُ كاللآلئِ على أهدابِها.

رغمَ المسافاتِ، لم يقصِّرْ في حقِّها، يغتنمُ كلَّ فرصةٍ لرؤيتِها، خاصةً بعدَ امتلاكِه شاحنتَه، يذهبُ حتى لا تُنسَى، خشيةَ تأثيرِ الطالباتِ الجامعياتِ اللواتي اشتهرَ بعضُهنَّ باللهوِ، يخصِّصُ مبلغًا شهريًا لزيارتِها مهما كانتِ الظروفُ، يحبُّها بعمقٍ، يراها جزءًا منهُ، كالهواءِ الذي يتنفَّسُه، يخافُ عليها أكثرَ من نفسِه".

الفصل الرابع: الغرق

أمضت سلمى سنتها الأولى في منزل جدها، الواقع على بعد ميل واحد من قلب المدينة، كانت دائمة التنقل بين محطة الحافلات المخصصة لنقل الطلاب في وسط المدينة والجامعة الواقعة على أطراف المدينة الكبرى، وكانت لها خالة صغرى تُدعى صونيا، تقاربها في العمر ولا تفوقها إلا بسنتين، كانت صونيا فتاة مدللة تغار من سلمى غيرة شديدة، تحسدها على اهتمام جدها وجدتها بها وعلى تعاطفهما معها في مواقف عديدة، كان هذا الاهتمام ينبع من احترامهما لابنتهما الدكتورة زينب، والدة سلمى، التي لا تتردد في مساعدتهما ماديًا، خاصة في أوقات الشدة والمحن التي تصيبهما أو تلم بأي فرد من أفراد العائلة، وكان ذلك أيضًا جزءًا من كرم الضيافة الذي اعتاده أهل المدينة جميعًا.

كانت صونيا تتدخل في كل صغيرة وكبيرة داخل المنزل، وبخاصة إذا تعلق الأمر بسلمى، ابنة أختها، كانت تثير ضجة وعويلاً بلا سبب واضح، إلا رغبة منها في إفساد فرحة سلمى بشتى السبل، وسد أي منفذ يمكن أن يُدخل البهجة إلى قلبها، مدفوعةً بالغيرة والحسد لا أكثر.

ومع تكرار هذه المواقف طوال تلك السنة الأولى، التي كانت سلمى تعيد فيها السنة الثالثة من التعليم الثانوي لاجتياز شهادة البكالوريا، سئمت من تصرفات خالتها الصغرى، فقد كانت تأمل أن تكون سندًا لها في هذه المرحلة الحساسة والمفصلية من حياتها، لا عائقًا يعكر صفوها وينغص عليها راحتها، أثر ذلك على تركيزها في دراستها، فشعرت بالضيق الشديد، وأخبرت والدتها الدكتورة زينب أنها لم تعد تطيق البقاء في منزل جدها أكثر من ذلك، وأوضحت أنها لم تجد راحتها التامة، بسبب ضيق المسكن وما تعانيه من مضايقات من صونيا، وطلبت منها إيجاد حلا عاجلا بمجرد انتهاء تلك السنة التي قضتها في المدينة لإتمام دراستها الثانوية ونيل شهادة البكالوريا.

وفعلا بمجرد انقضاء تلك السنة الدراسية، وبعد أن حصلت سلمى على شهادة البكالوريا، سجلتها والدتها في الإقامة الداخلية للطالبات، حيث حصلت سلمى على غرفة في المبيت الجامعي، وأصبحت لا تزور منزل جدها إلا في نهاية الأسبوع، للاطمئنان عليهما من جهة، ولتغيير أجواء الإقامة الرتيبة من جهة أخرى، وخلال إقامتها في المبيت الجامعي، تقاسمت الغرفة

مع ثلاث فتيات أخريات من دفعتها واختصاصها، تعرفت عليهن منذ أول يوم لها في الجامعة.

كانت إحداهن تُدعى دلال، وهي فتاة من مدينة داخلية مثل سلمى، كانت في مثل عمرها، سمراء البشرة، متوسطة الطول، ممتلئة الجسم، ذات رأس مدور يشبه البالون، كانت ترتدي أحدث صيحات الموضة، وتتباهى بذلك أينما ذهبت، خاصة أمام زميلاتها، كانت شخصية متسلطة، تحب السيطرة على صديقاتها المقربات اللواتي لا يفارقنها أبدًا، ارتبطت بشاب يكبرها بسنوات قليلة، يمتلك متجرًا تجاريًا في وسط المدينة، وكثيرًا ما كانت تزوره هناك بحجة شوقها إليه، لكن الحقيقة أنها لا تتوجه إليه إلا عندما تسمع بوصول شحنات جديدة من الملابس، فتسرع لاختيار الأفضل منها، وتحصل على بعضها مجانًا كما اعتادت دائما، أما في الأيام الأخرى، فلم تكن تزوره، وعندما يعاتبها، تختلق له الأعذار الكثيرة، وفي الواقع، لم تكن تحبه أو تشتاق إليه، بل كانت تحتاج إلى دعمه المادي فحسب، فقد جاءت من أسرة فقيرة لا تستطيع تلبية رغباتها المتعددة، وكانت غيورة عنيدة، تسعى للظهور بمظهر يفوق زميلاتها في الجامعة، ولم تجد لذلك سبيلاً إلا بمصادقة رجل

ميسور يلبي احتياجاتها المادية، وهو بدوره لم يكن يحبها، بل كان من الذين يستمتعون بصحبة الفتيات الصغيرات، فكانت علاقتهما قائمة على تبادل المنافع فقط.

وفي الوقت نفسه، كانت دلال تواعد شابًا آخر في سنها، يدرس معها في نفس الاختصاص، وكثيرًا ما كانت تقول إنها ستختار بينهما، لكنها لم تحسم أمرها قط، استهوتها لعبتها تلك، فكانت تمثل على الاثنين، تتسلى بنار غرامهما، وتزن أيهما أكثر نفعًا لها، الأول كانت تستطيع استغلاله ماديًا متى شاءت، لكنها تعلم أنه لن يتزوجها، ولذلك لم تهمل الثاني، وعلى الرغم من أنه لا يملك المال بعد، إلا أنها كانت واثقة من قدرتها على إيقاعه في حبائلها والزواج منه في النهاية.

أما زميلتها الأخرى فكانت تُدعى ريمة، فتاة طويلة القامة، قوية البنية، أنيقة، ذات جمال بارز وبشرة بيضاء كالثلج، كانت كثيرة الضحك، وتظن نفسها لعوبًا تجيد اصطياد الرجال لتوقعهم في شباكها، تربطهم بحبال هواها، ثم تستنزف ما في جيوبهم. وعندما ينفد مالهم، تختلق سببًا

للانفصال وتتركهم، ثم تعاود الأمر مع غيرهم، لكنها في الحقيقة لم تكن سوى ضحية مخدوعة، فتاة ضعيفة منعزلة، يتلاعب بها الآخرون حتى يدمروها، بينما هي تظن أنها من يتحكم فيهم.

وكانت الثالثة تُدعى سماح، فتاة صفراء الوجه، شقراء الشعر، ذات وجه مائل للحمرة، نحيفة ورقيقة البنية، على عكس زميلتيها، كانت هادئة رزينة، لا تتحدث إلا عند الضرورة، يتيمة الوالدين، تعيش مع أخيها في منزل خالتها، وقد أتت من إحدى بلديات المدينة، ولم تكن تربطها علاقات بأحد.

مرت الأسابيع الأولى لإقامة سلمى معهن بهدوء نسبي، كانت سلمى قليلة الخروج من غرفتها، ولم ترافقهن في جولات التسوق أو التنزه أبدًا، وإذا اضطرت للخروج لحاجة ما، كانت تفضل مرافقة سماح، الهادئة قليلة الحركة، التي لا تختلط كثيرًا بباقي الطالبات، كن يسهرن في غرفتهن للمراجعة معًا، وأحيانًا يتبادلن قصص مغامراتهن، أو يتناقشن في مواضيع شتى، ويتجادلن حول أحداث الجامعة، لم يكن يجذب سلمى الاختلاط بطالبات الحي الجامعي، أو البقاء في نادي الطالبات الداخلي، وإذا اضطرت

لزيارته لحاجة ما، كانت تغادره سريعًا، كانت تفضل البقاء في الغرفة مع سماح، أو الجلوس في ساحة الإقامة الجامعية، وفي عطلات نهاية الأسبوع، كانت تزور منزل جدها كعادتها منذ استقرت في الإقامة، فتبيت ليلة واحدة، ثم تعود في اليوم التالي، لكن في الأيام الأخيرة، قللت من زياراتها إلى مرة شهريًا، بعد أن سئمت من تصرفات خالتها صونيا ومضايقاتها المستمرة بسبب الغيرة والحسد، اللذان عششا في قلبها، وإذا عاتبها جدها أو جدتها على ذلك، كانت تعتذر بحجة انشغالها بمراجعة دروسها المكثفة في الإقامة.

في أحد الأيام، التقاها عدلان بعد زيارة خاطفة، في المكان ذاته على الرصيف المقابل لشاطئ البحر، كانا جالسين على الكرسي الحديدي القديم الذي ظل منتصبًا هناك منذ سنوات، في موقعهما المعتاد، كان يومًا غائمًا من أيام الشتاء، يلفح البرد أجسادهما، ويخيم الهدوء الغريب والبساطة المزعجة على كل ما حولهما، أدار عدلان بصره حوله، متأملًا أمواج البحر التي كانت ترتطم أحيانًا بحافة الرصيف بعد عبورها رمال الشاطئ، ثم انحنى قليلًا إلى اليمين، مستندًا بيده إلى حافة الكرسي، وقال: "حياة الفتاة بمفردها صعبة، وعليها أن تحترس من كل ما حولها، حتى من صديقاتها

وأقرب الناس إليها، وكثرة الاختلاط قد تجلب الضرر، ومخالطة مثل هؤلاء الطالبات لن تعود عليكِ بخير يُذكر، إنها قد تؤذيكِ وتهبط بكِ إلى هاوية سحيقة، وتشوه سمعتكِ أمام الناس".

ثم هز رأسه بحزم، وأضاف متسائلًا: "وأي ثمر تتوقعينه من فتيات لم ينضجن بعد؟" بدا من كلامه أنه سمع أخبارًا غير سارة عن زميلاتها في الغرفة، كان عدلان كثير السؤال عن الجامعة والإقامة منذ أن وطئت اقدام سلمى أبوابها، وكثيرًا ما كان يلتقي بأحد أبناء بلدته، شاب يُدعى سمير، يدرس هناك منذ سنتين ويعرف كل ما يدور في الجامعة، كان سمير وسيم المظهر، أنيقًا، لكنه ضعيف الشخصية، ثرثارًا، يفتقر إلى الرزانة، ويحب التدخل في كل شيء، كان يروي لعدلان كل ما يحدث هناك بالتفصيل، ولا يتردد في تتبع أخبار سلمى ونقلها إليه بدقة، بينما ينصت عدلان باهتمام بالغ.

سكت عدلان لحظة، وأطرقت سلمى بنظرها، كان واضحًا أن كلامه أزعجها، مرت عشر دقائق على الأقل في صمت مطبق، لم ينطق أحدهما

بكلمة، فجأة، قالت سلمى دون أن ترفع رأسها: "لا أستطيع تغيير شيء، حتى لو بقيت وحدي وابتعدت عن مخالطة الطالبات، الإقامة الجامعية تفرض على كل مقيم الاحتكاك بالكثيرين، مهما حاول الابتعاد، لا مفر من ذلك أبدًا، فماذا أفعل الآن؟" قالت ذلك ورمقته بنظرة حائرة ممزوجة بالغضب، كأنها تقول: "ما الذي جاء بك الآن؟"

رفع عدلان ذراعه ببطء، وقال بصوت أجش، ناطقًا بكل كلمة بوضوح: "هؤلاء الفتيات سيضيعنكِ، أنا متأكد، ستكون نهاية علاقتنا على أيديهن، إحساسي يخبرني بذلك،" ثم نظر إليها بطرف عينيه، مائلًا رأسه قليلًا إلى الخلف، وأكمل: "أنتِ لا تنظرين حيث يجب أن تنظري، ارفعي بصركِ إلى أبعد الحدود".

بدأت سلمى تختلس النظر إليه وهي تستمع إلى كلامه الممزوج باللوم والنصح، وتشعر بثقل كلماته وقسوتها يسحقانها، تذكرت والدها في تلك اللحظة؛ لقد تحدث إليها ذات مرة بنفس الهدوء، وحرك ذراعه بنفس

الأسلوب، محذرًا إياها بكلمات مشابهة، يملؤه السكون والطمأنينة وهو يسدي إليها النصائح ويضرب لها الأمثال.

لم يستطع عدلان مواصلة كلامه أكثر، كانت عيناه تتقدان غضبًا، وأنفاسه تتعثر، كانت سلمى بدورها منفعلة، ثم أمسكها من ذراعها برفق، وأنهضها دون أن يضيف كلمة، وانطلقا يسيران على امتداد الرصيف الطويل في صمت غريب.

مرت السنة الأولى من حياة سلمى الجامعية، والثانية من انتقالها إلى المدينة الساحلية وبعدها عن عدلان، واعتادا على هذا النمط الجديد من الحياة، وتغيرت علاقتهما كثيرًا، لتصبح تعتمد على الرسائل البريدية والزيارات النادرة كلما سنحت لعدلان فرصة لزيارتها.

والمؤسف أن عدلان تعرض لحادث مروري في أحد أيام الشتاء، بينما كان ينقل بضاعة لأحد التجار المقيمين في مدينة جبلية باردة تقع على أقصى الهضاب العليا، فقد انزلقت شاحنة مقطورة في أحد المنعطفات الخطرة بين قمم تلك الجبال، فاصطدمت بشاحنة عدلان التي كانت خلفها، إلى

جانب سيارتين صغيرتين وحافلة نقل جماعي، وقع الحادث بسبب الصقيع والثلوج المتراكمة على الطريق، لكن الجميع نجا بسلام، ولم يصب عدلان بأذى، إلا أن شاحنته تضررت بشدة.

تسبب هذا الحادث في توقف عدلان عن العمل لعدة أشهر، بانتظار إصلاح الشاحنة، ولم يعد يزور سلمى كما اعتاد، إذ أشغله إصلاح الشاحنة وأوقفه البعد عنها طوال تلك الفترة، أثر فيه هذا الفراق بعمق، وهو الذي لم يعتده إلا بصعوبة بالغة، وبسبب طبعه الغيور، وما كان يصل إلى مسامعه من قصص عن فساد الطالبات الجامعيات والخيانات التي تحدث في الأوساط الجامعية، كان ينتمي إلى تلك الفئة من الرجال الذين تتملكهم الغيرة، فيتخيلون أسوأ الاحتمالات عندما يبتعدون عن محبوباتهم، كانوا يعانون عذابًا نفسيًا شديدًا من مجرد تصور خيانتهن خلال غيابهم، لكن ما إن يلتقي سلمى مجددًا، حتى وإن كان في ذروة القلق واليأس مقتنعًا بخيانتها، حتى يرى وجهها الضاحك الرقيق المرح، فيبدد شكوكه على الفور، كان يشعر بالخجل من غيرته، ويلوم نفسه على قلة ثقته بها، بعد كل زيارة لها، كان يشعر وكأن ثقلًا عظيمًا قد رفع عن صدره، لكنه، وهو في طريق

عودته إلى القرية، ما يلبث أن يتساءل: "هل حدث شيء في غيابي؟ هل تتحدث سلمى إلى طلاب أو رجال آخرين غيري؟" فتشتعل نار الغيرة في قلبه من جديد قبل أن يعود إلى البلدة، ورغم غيرته الشديدة، والوساوس التي كانت تلازمه، والهواجس التي كانت تعشش في ذهنه، لم يكن عدلان يرضى أن يراقبها أو يترصدها أو يتجسس على تحركاتها، كان الكثيرون ممن يعرفهم قد نصحوه بذلك، خاصة بعد ملاحظتهم تغيرًا في تعاملها معه في الأشهر الأخيرة، لكنه كان أكثر ميلاً للثقة من أن يلجأ إلى مثل هذه الأفعال، كان يحتاج إلى أدلة واضحة وبراهين قاطعة ليصدق تلك الوساوس ويتخيل خيانتها، وكانت هذه الهواجس تزداد كلما طالت مدة غيابه عنها، لا سيما في هذه الفترة التي توقف فيها عن العمل بسبب الحادث وتعطل شاحنته للإصلاح.

لكن سلمى بدأت تشعر بالوحدة في تلك الإقامة الجامعية القاتمة، كانت زميلاتها في الغرفة يجذبنها إليهن تدريجيًا، مستغلات شعورها هذا دون أن تدرك ذلك، فأصبحن أحيانًا يخرجن معًا في أيام العطل الأسبوعية للتسوق، وأحيانًا أخرى يذهبن بمفردهن إلى شاطئ البحر أو المتنزهات

العامة أو حدائق التسلية، للترفيه عن أنفسهن وكسر الروتين والملل الذي يثقل كاهلهن داخل الإقامة، لم يكن لديهن خيار آخر سوى ذلك، كانت سلمى ترى نفسها قوية، غير قابلة للتأثر بما تفعله زميلاتها أحيانًا عندما يخرجن ويلتقين بأصدقائهن في تلك الأماكن، دارت بينهن نقاشات عدة حول علاقتها بعدلان وإخلاصها له، دافعت سلمى عن تلك العلاقة بقوة، معتبرة إياها نادرة في زمن طغت عليه علاقات المصالح والمنافع المتبادلة، وكثيرًا ما تفاخرت بأن علاقتها تنتمي إلى زمن جميل مضى بلا عودة، في المقابل، رأت صديقتاها دلال وريمة أنها تهدر وقتها في علاقة قديمة مملة لا طائل منها، وأنها لن تدوم طويلًا، وزعمتا أنها تناقض نفسها؛ فكيف تحافظ على حبها وحبيبها بعيد عنها، وهي وحيدة بلا سند، وتفكر في البقاء والعيش في هذه المدينة الساحلية الكبيرة، دون العودة إلى قريتها النائية البعيدة؟ وأكدتا أن من الصعب جدًا أن يتمكن عدلان من الانتقال للعيش معها وتلبية متطلبات الحياة العصرية في هذه المدينة الكبرى.

في إحدى المرات، بينما كنّ معًا على شاطئ البحر لقضاء بعض الوقت، التقت دلال بصديقها نبيل، صاحب المحل، وانفردت به على إحدى

الطاولات المنتشرة على رصيف الشاطئ، كانت تلك الطاولات مخصصة للعشاق من قِبل أصحاب المطاعم وبائعي المثلجات والحلويات المقابلة، بقيت صديقاتها يمرحن على رمال الشاطئ كعادتهن، كما يفعلن دائمًا للتخلص من توترهن والملل الناتج عن إقامتهن الطويلة في الإقامة الجامعية، رافق نبيل في ذلك اليوم ثلاثة من أصدقائه، بقوا أولاً في السيارة التي وصلوا بها، يتأملون البحر من الطريق الفاصل بين المحلات التجارية والشاطئ، ثم نزلوا وجلسوا على أحد الكراسي الحديدية المنتشرة على الرصيف المقابل للشاطئ، يراقبون الفتيات وهن يمرحن على الرمال ويتنقلن جيئة وذهابًا، بعد عودة الفتيات إلى مكانهن على الكرسي المجاور، تقدم الشباب نحوهن، مرحبين قائلين:

"مساء الخير يا فتيات، كيف حالكن؟ نتمنى ألا نزعجكن، نحن أصدقاء نبيل، صديق دلال، وقد سمعنا عنكن كلامًا جميلاً كثيرًا، وكنا ننتظر فرصة للتعرف إليكن".

ارتبكت سلمى، احمرّ وجهها، وأطرقت برأسها نحو الأرض دون رد، صمتت سماح أيضًا، دون أن تظهر أي ردة فعل، لكن ريمة قفزت من مكانها، مبتسمة ابتسامة عريضة، كأنها كانت تنتظر هذا اللقاء، أو ربما كان مخططًا له مسبقًا مع دلال ونبيل لتمهيد الطريق لأصدقائه للتعرف على الفتيات، رحبت بهم بسرعة قائلة: "مرحبًا بكم، لا مانع لدينا ما دمتم أصدقاء نبيل، ونحن أيضًا سمعنا عنكم الكثير".

تقدم أحدهم قائلاً: "هذا يوم جميل، ولن نلتقي فيه إلا بوجوه جميلة مثلكن،" ثم التفت إلى فتى يمر خلفه يحمل باقة ورد، يعرضها على مرتادي الرصيف، وناداه: "تعالَ يا ولد".

قفز الفتى أمامه قائلاً: "نعم سيدي".

اختار ثلاث وردات حمراء، وأعطى الفتى ورقة نقدية.

قال الفتى: "ليس لدي فكة يا سيدي".

تبسم الشاب، كأنه يتباهى أمام الفتيات، وقال: "احتفظ بها كلها، " ثم أشار إلى طاولة نبيل ودلال، مضيفًا بضحكة عالية: "خذ واحدة لتلك الفتاة أيضًا، " ثم بدأ يوزع الورود على الفتيات.

انتزعت ريمة وردة بمجرد أن مد يده، وضحكت بملء فمها كعادتها، مقربة الوردة من أنفها وهي تستنشقها بعمق وقالت: "شكرًا، رائحتها زكية!"

بينما سلّم أخرى لسماح، فأمسكتها بهدوء دون تعليق،

ورفضت سلمى في البداية قائلة: "لا، شكرًا، لدي من يرسل لي باقات الورود كثيرًا".

لكنه أصر قائلا: "ليس من اللباقة أن أكرم الجميع وأتركك، اعتبريها عربون أخوة فقط".

ردت سلمى: "إن كانت كذلك، سأقبلها وأكرر شكري، " ثم أخذت الوردة وأطرقت برأسها خجلاً.

تقدم آخر قائلاً: "حان وقت التعارف، أنا سالم، صاحب المحل الملاصق لمحل نبيل،" ثم فتح ذراعيه يمينًا ويسارًا: "وهذا طارق، مستورد ملابس بالجملة، وهذا عماد، صاحب مقاولة لتشييد المباني والطرقات".

كان عماد هو من وزع الورود، شاب طويل القامة، قوي البنية، ممتلئ الجسم، لم يكن من المدينة، بل عابر سبيل، يتنقل بين المدن والبلدات حسب مشاريعه التي يفوز بها في مناقصات البناء من الجهات العامة والخاصة، عُرف عنه أنه ثري ومرموق، شجاع وكريم لا يبخل بالمال، لكن في الحقيقة، كان مهرجًا ماكرًا، يخدع الناس بلطفه وسخائه، كان مرتشيًا، يسعى للمال بكل الوسائل، ويشتهر بالتلاعب بمشاعر الفتيات، مغريًا إياهن بالهدايا حتى يشبع رغباته، ثم يتخلى عنهن عند مغادرته المدينة ليبدأ علاقات جديدة في مكان آخر.

منذ اللحظة الأولى، ركز عماد على سلمى، كان قد رآها سابقًا مع دلال وزميلاتها أثناء زيارات خاطفة لنبيل أمام الإقامة الجامعية، ويبدو أنه

خطط لهذا اللقاء منذ فترة زمنية، اقترب منها وسأل: "بماذا تفكرين؟ هل تستحق هذه اللحظة التفكير؟ إنها للمرح والفرح ونسيان الهموم".

نظرت إليه سلمى بحذر وقالت: "من قال إنني أفكر؟ أنا فقط أتأمل".

رد عماد: "التأمل ممزوج بالتفكير، أليس كذلك؟"

أجابت: "ربما ".

في تلك اللحظة، أمسكت ريمة بيد سماح، ونهضت قائلة: "تعالي نتمشى قليلاً، مللت الجلوس،" انطلقتا مع سالم وطارق بخطى متثاقلة، مبتعدين عن الكرسي الحديدي حيث تجمعوا، جلس عماد على الطرف المقابل لسلمى، تنهد بعمق وهو يستنشق الهواء وقال: "هل أستطيع الجلوس؟"

ردت: "افعل ما يريحك".

قال: "شكرًا، اعتبريني ضيفك، أنتم معروفون بكرم الضيافة، أليس كذلك؟"

ابتسمت سلمى: "بالتأكيد، نحن منبع الكرم".

اقترب قليلاً، معتدلًا في جلسته: "إذن، هل تكرمينني بأن أكون صديقك؟"

ضحكت: "ليس هذا الكرم الذي أعنيه عندنا"!

سأل: "فما نوع كرمكم إذن؟ أليس منه إكرام عابري السبيل؟"

ردت: "نكرمهم بالطعام لا غير، وليس بالفتيات"!

قال: "نحن لم نطلب الفتيات، بل طمعنا في الصداقة فقط".

تعددت لقاءات الفتيات مع مجموعة الشباب، فكانوا يجتمعون أحيانًا في حديقة الألعاب والتسلية، أو يحضرون معًا المناسبات التي تُقام داخل الجامعة، توطدت علاقتهم كثيرًا، وأغدق الشباب عليهن بسخاء بأنواع مختلفة من الهدايا، بدا أن سلمى اعتادت حضور عماد إليها، وشعرت أنه ملأ الفراغ الذي تركه غياب عدلان، رغم اعتقادها الأولي أن علاقتها بعماد لن تتجاوز الصداقة، بدأت تألفه تدريجيًا، ونجح هو، بما يملكه من مهارة في استمالة النساء، في جذب قلبها بشتى الطرق، كانت زميلاتها، خلال نقاشاتهن وحواراتهن العَرضية، يشجعنها على التقدم نحو علاقة عاطفية

معه، والتخلي عن علاقتها القديمة بعدلان، وأكدن لها أن فرصة كهذه لا تُعوض، وأصبح عماد وسلمى يخرجان بمفردهما، وكثيرًا ما كان يصطحبها إلى أرقى المطاعم الرومانسية في المدينة، مغرقًا إياها بالهدايا الباهظة، فهو ثري وقد أغراها بمظاهر الرفاهية، واستبداله السيارات بأخرى أفخم منها في كل زيارة، يقوم بها اليها.

في هذه الأثناء، كان عدلان منهمكًا في عمله، يكدح ليل نهار لتعويض ما فاته خلال توقفه بسبب الحادث، وازدحمت مهامه، ولم يعد وقته المحدود يسمح له بزيارات طويلة أو متكررة لسلمى في المدينة الساحلية البعيدة، وفي إحدى زياراته السريعة، بعد أن اشتدت به الوساوس وتخيلات الخيانة، ذهب إليها، وما إن رآها حتى تبددت غيرته كعادته، فعاد مطمئنًا كريم النفس في لحظات، بل وصل به الأمر إلى لوم نفسه واحتقارها بسبب تلك الشكوك التي راودته طوال غيابه وفي طريقه إليها، كان ذلك دليلاً على أن حبه لها يحمل طهرًا وعمقًا يفوق ما يظنه من يعرفون قصتهما، ليس مجرد شهوة أو تسلية، بل حبًا نقيًا لم تلوثه المصالح أو الرغبات الضيقة.

لكنه وجدها هذه المرة مختلفة عما توقع، لم تفرح بقدومه كما كانت تفعل سابقًا، بل بدا وكأن حضوره أزعجها، لاحظ رغبتها في قطع الحديث أو تغيير الموضوع كلما حاول مناقشة أمر ما، تأملها بعمق، فرأى في عينيها قلقًا كأنها تخفي شيئًا، عندما شعرت بتفرسه فيها، رمقته بنظرة سريعة حادة، أحس بها كجمرة تحرقه، تساءل في نفسه: "لا شك أن هناك ما لا تريد البوح به،" في تلك الزيارة الخاطفة، لم يمكث معها طويلاً كما اعتادا سابقًا، بل عاد أدراجه سريعًا لكثرة تنقلاته المرتقبة، في طريق العودة، استبد به التفكير في تغير سلمى مؤخرًا، فلم تعد تُسر بقدومه، وتسعى لإنهاء لقاءاتهما بسرعة، اشتعلت نار الغيرة في قلبه مجددًا، وحاصرتْه الشكوك والوساوس من كل جانب، عاد يتخيل خيانتها بكل تفاصيلها القاسية، دون أن يشعر هذه المرة بذنب، فقرر دون تردد أن يتحرى عن تحركاتها من سمير، الذي كان ينقل له أخبار الجامعة، لكنه لم يلتقِه منذ الحادث ولم يعرف منه شيئًا عن سلمى منذ فترة.

بعد أسبوعين، سمع عدلان بعودة سمير لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في المدينة، فهرع إليه في دار الشباب حيث يجتمع بزملائه من طلاب الجامعة

والمعهد، كما جرت عادة شباب القرية منذ زمن، سأله بحرص عن كل شيء، مستجديًا إياه أن يخبره بما يعرفه عن سلمى في الفترة الأخيرة التي لم يلتقيا فيها، تردد سمير أولاً، متجنبًا أسئلة عدلان المتلاحقة، ثم اندفع أخيرًا وقال باختصار: انه "رجل طويل أشقر، متهجم الطباع،" قال ذلك وأدار ظهره منطلقًا، كأنه لا يريد صدمه بمزيد من التفاصيل، ركض عدلان وراءه صائحًا، لكنه هز كتفيه ببرود وهو يعبر بوابة النادي، تبعه عدلان وأمسكه من ذراعه، مديرًا إياه نحوه: "ألا تريد إخباري بالمزيد؟"

رد سمير: "لم أرد أن أقسو عليك، فأنا أعرف مدى حبك لها، ولاحظت انحرافها منذ سنتها الثانية بالجامعة، عندما خالطت تلك الطالبات، لكن لم أستطع إخبارك، كان البوح بذلك صعبًا عليّ".

قاطعه عدلان بصوت مرتعش بالغضب، عاجزًا عن كبح جماحه: "لماذا لم تخبرني من قبل؟ لماذا تركتني حتى هذه اللحظة؟"

قال سمير: "خشيت أن تكون الصدمة قاسية عليك، فقلت في نفسي لعلها نزوة عابرة لفتاة صغيرة، ستعود بعدها إلى رشدها، ولم أرَ الأمر يستحق

إخبارك في البداية، لكن عندما رأيتها تنحرف إلى هذا الحد، وتواعد رجلاً آخر، قررت أن أخبرك، لكنني كنت أبحث عن طريقة لا تؤذيك،" قال ذلك ثم صمت، كأنه يتعمد كتم المزيد.

دمدم عدلان بدهشة واضحة، وقد اكتست ملامحه همًا ثقيلاً: "أريدك أن تخبرني المزيد ".

مع توسل عدلان المستمر، رق قلب سمير واستجاب قائلاً: "كانت سلمى في سنتها الأولى والثانية فتاة ملتزمة جدًا، قليلة الخروج، لا تختلط بالطالبات كثيرًا، لكنها تغيرت في السنة الأخيرة، خاصة بعد إقامتها في الحي الجامعي، بدأت تخرج مع زميلات غرفتها بين حين وآخر، وفي الأشهر الأخيرة أصبحت أراها معهن برفقة مجموعة شباب كثيرًا، وأحيانًا تنفرد مع أحدهم، يُدعى عماد المقاول، شخصية معروفة بين الطلاب والطالبات لتردده الدائم على الحرم الجامعي منذ سنوات ".

أصغى عدلان بانتباه شديد، وسُحق تحت وطأة الكلمات، لم ينبس بكلمة، بل ظل تائهًا أيامًا، لا يغمض له جفن، يغرق في كآبة وحزن، وقلبه

يكاد ينفجر من الصدمة، حتى سنحت له فرصة لزيارتها، سافر إليها مسرعًا والتقاها في مكانهما المعتاد، على ذات الكرسي الحديدي برصيف شاطئ البحر، جلس بجانبها، نظر إليها فاحمر وجهه فجأة احمرارًا غير متوقع، اغرورقت عيناه بالدموع، واكتسى وجهه الحزن العميق، سألها بلهجة حادة وعبارات متسارعة: "كيف تعرفتِ على هذا الشاب عماد؟ "

نظرت إليه بطرف عينها، مقطبة حاجبيها، وبدلاً من الإجابة ردت بسؤال جاف: "من أخبرك بذلك؟" كان تفكيرها في تلك اللحظة محاصرا بين استحالة الإنكار واستحالة الاعتراف.

أجاب وهو يمد بصره إلى أعماق البحر، وحيث تتلاطم الأمواج على حافة الرصيف: "الأفعال الخبيثة لا تبقى مختبئة طويلاً، ستُكشف مهما طال الزمن أو قصر، وستطفو على السطح، والأهم أنني علمت ".

هزت رأسها بأسى وقالت: "أنت من منحتني الفرصة لأفعل ذلك، كنت تجرحني كثيرًا، تاركًا إياي وحيدة بلا سند، لقد أخبرتك منذ زمن أن عليك الانتقال إليّ هنا، فأنا لن أعود إلى تلك القرية المنكوبة مجددًا، لقد كبرتُ،

وتغير تفكيري، واتسعت أحلامي، ولا سبيل لي للرجوع، الى تلك البلدة المشؤومة، وانت لم تفعل شيئًا خلال السنوات الماضية يُظهر أن حياتنا ستستمر معًا، لقد أصبحت علاقتنا مستحيلة، ووصلت إلى طريق مسدود، ودستُ على قلبي واتخذت قرارًا عقليًا بالابتعاد عنك، مهما كلفني ذلك، وعلمتُ أنك لن تتركني وشأني إلا إذا ارتبطت بآخر، ففعلتُ ذلك عمدًا لأنهي قصتنا دفعة واحدة،" ثم انفجرت دموعها كسيل جارف.

صمت عدلان، ووجهه متجهم، ثم قال: "مررتُ بفترة عصيبة بعد توقفي عن العمل إثر حادث الشاحنة، وضاقت بي الأمور، شعرتُ بالاختناق والغرق دون منقذ، بلغتُ اليأس، وكدتُ أنهي علاقتنا نهائيًا، لكنني ندمتُ لاحقًا، تغلب قلبي على عقلي، ولم أستطع ذلك، تذكرتُ وعودنا القديمة،" وأطرق برأسه، غارقًا في أفكاره، وسالت دموعه على خديه المتورّدين، ونظر إليها بقسوة وقال: "انت تعلمين أنني لا أملك القدرة على تغيير مكاني، هل صارت بلدتك عارًا عليكِ؟ كيف لا تستطيعين العودة للعيش فيها؟ كيف ذلك؟"

ردت بصوت ضعيف مرتعش، اخترق قلبه وفاقم ألمه: "مهما كانت الظروف، عهدتك أقوى منها، لا تهزمك، كيف غلبتك هذه المرة، وتركتني وحيدة طوال هذه المدة دون أن تفعل شيئًا للقدوم إليّ؟ أنت السبب... أنت السبب "!

ما إن سمع كلماتها حتى اقشعر بدنه وقال: "خُدعتُ... أشعر أنني خُدعت، انا لا أملك من الواقع شيء، لكن قلبي يحس انني خدعت، هذه هي المسألة،" قبض كفه بقوة وتابع: "لماذا نسيتِ كل شيء في لحظة؟ لماذا بدّلتكِ الأيام؟ لماذا؟"

ردت سلمى فجأة، وهي تحاول ضبط أعصابها: "لا تظنني طائشة متقلّبة في حبها، أو أنني قادرة على نسيانك بسهولة، لكن الحقيقة أنني لم أعد أستطيع مواصلة هذه العلاقة، تغيرت أشياء كثيرة خلال سنوات بعدنا، تباينت توجهاتنا وطرق تفكيرنا، ومنذ غادرت تلك القرية المنكوبة، عزمتُ ألا أعود إليها أبدًا مهما حدث، بينما أنت عاجز عن مغادرتها، وطوال هذه السنين، فكرتُ في اختلاف مساراتنا المستقبلية، وأدركتُ أن الحب وحده لم

يعد كافيًا لاستمرار علاقتنا، كان محتومًا أن نصل إلى طريق مسدود، وها نحن الآن في مفترق الطرق، حيث يسلك كل منا سبيله المرسوم لحياته، لم يعد بإمكاننا السير معًا، فالظروف تفرض علينا الافتراق، لا سبيل آخر، لا سبيل آخر... نعم، نعم..." ثم انفجرت دموعها مجددًا كسيل هادر.

شعر عدلان، وهو يستمع إلى كلماتها، بسهام تخترق قلبه، وأدرك أنها اتخذت قرارها منذ زمن، واستغلت هذه اللحظة لتعلنه، وعرف أن لا جدوى من مواصلة الحديث، فنهض ببطء، وكأن ثقل العالم يجثم على كتفيه، نظر إليها بغضب ممزوج باليأس، وقال: "أعلم أنكِ اخترتِ طريقك منذ مدة، ولن أجبركِ على السير معي".

قطب عدلان حاجبيه، وتجهم وجهه، ثم نهض والتفت إليها، مرمِقًا إياها بنظرة ثابتة ملؤها الاحتقار، وقال بصوت خافت مكتوم: "ما أغباني حين ظننتُ أنكِ ستعودين يومًا إلى مسقط رأسك، لكنني لم أرَ فيكِ إلا فتاة مخادعة، كاذبة، لعوب، وممثلة خسيسة، هذا آخر لقاء بيننا، سأقطع علاقتي بكِ إلى الأبد".

بقيت سلمى جامدة في مكانها، دموعها تنهمر بلا توقف.

اندفع في كلامه بطيش شديد، فقد أضاعته اضطراباته وجراحه العاطفية، ثم استدار وغادر المكان مسرعًا، تاركًا إياها كالصنم، دموعها تسيل دون أن تنطق بكلمة، ركب شاحنته وانطلق نحو القرية، آملاً أن يجد في طريق العودة جوابًا للأسئلة التي تعذبه، حدث نفسه: "لن أحزن على ما فات، فهناك أشياء كان يجب أن تنتهي منذ زمن، وأشخاص كان ينبغي أن يعودوا غرباء منذ مدة، مواقف صعبة مرت بنا لنصير أقوى، وفرصٌ ضاعت في ذلك الطريق الطويل، لكن المؤلم أننا ندرك متأخرين أن بعض من مروا بحياتنا أرادونا لمصالحهم المؤقتة، لملء فراغهم، أو لتخفيف حزنهم، أو لحماية أنفسهم، وحين انتهت حاجتهم، رحلوا دون تردد، أعطيناهم قلوبنا بصدق، احتويناهم بطيبة، لكنهم رأونا وسيلة لا غاية".

سيطرت عليه الوساوس، وتصارعت في ذهنه الأفكار والعواطف والكلمات؛ فتارة يلوم الظروف والأقدار التي أضاعت حبه الذي بنى عليه آمالاً عظيمة، وجعلته حلمًا أسطوريًا يشبه قصص الأفلام، وتارة أخرى

يُحمّلها كل اللوم، واصفًا إياها بالخائنة الغادرة، كان يعتقد أن سلمى أحبته بكل تفاصيله، وملأ قلبها وخيالها، لكن الأقدار سارت عكس ما اشتهى قلبه.

لقد انتهى كل شيء، تبدّد ذلك الحلم الذي عاشه عدلان طوال سنوات، فقد القشة التي كان يتشبث بها وسط أمواج الوحدة المتلاطمة، والحافز الذي كان يدفعه لبناء مستقبل بسيط ومشرق، انتهت تلك القصة التي نسج خيوطها كفنان بارع، في لمح البصر.

مرت سنوات الدراسة الجامعية سريعًا، واعتادت سلمى على عماد خلال تلك السنوات الأخيرة، ورأت فيه الجسر الذي سيوصلها إلى المدينة الساحلية التي طالما حلمت بالعيش فيها منذ طفولتها، تذكرت نفسها وهي تزور بيت جدها مع والدتها في العطل الصيفية، حين عرضت جدتها عليها البقاء هناك، ثم مرّ أمام عينيها شريط ذكريات مضايقات خالتها صونيا، المليئة بالغيرة والحسد، تذكرت محاولاتها المتكررة للتأقلم في بيت جدها خلال عامها الأول عندما كررت سنة البكالوريا، وصبرها على إيذاء خالتها، لكنها فشلت، فانتقلت إلى الإقامة الداخلية في السنة التالية، ولهذا، ها هي

الآن في عامها الخامس، آخر سنة قبل التخرج، رأت في عماد فرصتها الوحيدة للبقاء في المدينة، فقررت ألا تفرّط به مهما حدث، حتى لو اضطرت للتضحية بحبها لعدلان الذي ترعرع معها منذ الصغر.

لا تختلف سلمى عن كثير من النساء اللواتي لا يطِلن الحزن على الرجال، مهما أحببنه بصدق، يبكين ساعات أو أيامًا، وربما شهورًا في أسوأ الحالات، ثم ينسين كأن شيئًا لم يكن، ليس أنانية، بل لأن المرأة تحب الرجل الذي ترى فيه فارس أحلامها، تبكي فراقه حتى تستفيق، مدركة أن الفارس الحقيقي لا يُقهر بالظروف ولا يفارقها، ولو كان كذلك، لفعل المستحيل ليحتفظ بها، لذلك، لا تطيل النساء البكاء على رجل هزمته الظروف أو ساومها على بقاء باهت، هكذا رأت سلمى الأمر، وبررت به قطع علاقتها بعدلان، مضيفة إلى ذلك تمسكها بالعيش في المدينة الساحلية واستحالة تغيير ظروف عدلان لتحقيق حلمها بالاستقرار هناك.

منذ بدأت مواعدة عماد، خرجت معه كثيرًا، أغواها بمظاهر الفخامة؛ يبدّل سياراته بأفخمها، يهديها هدايا باهظة، ويصطحبها إلى مطاعم أرقى في

كل مرة، أعمى بصيرتها عن الحقيقة، حتى صارت تقضي الليالي معه في فنادق فخمة عندما تسنح الفرصة، وتخبر صديقاتها أنها عند جدتها، بينما يظن أهلها أنها في الإقامة، كانت تؤمن أنه سيتقدم لخطبتها بعد تخرجها كما وعدها، لكنه اختفى فجأة بعد انتهاء مشاريعه في المدينة، مدعيًا أنه سينتقل إلى الجنوب لمشاريع جديدة، ويعود لخطبتها بعد ترتيب أموره، لكنه لم يظهر لأشهر طويلة، سئمت الانتظار، فذهبت إلى محل نبيل، صديق دلال، لتسأل عنه، فصُدمت بأنه لا يعرفه إلا معرفة عابرة، وأن عماد احتال عليه في بعض المال أيضًا وفرّ إلى مكان مجهول.

انهارت سلمى من هول الصدمة، وأدركت أنه تلاعب بها طوال أربع سنوات, غرقت في حزن عميق، وغادرت بيت جدها عائدة إلى القرية بعد أشهر من الانتظار العقيم, وجلست في غرفتها منعزلة مكتئبة، تجهل ماذا تفعل، لقد خسرت عدلان، حب حياتها، الذي لن يعود أبدًا، وخسرت حلمها بالعيش في المدينة الساحلية، وخُدعت ممن وثقت به وضحّت من أجله بكل شيء، ندمت متأخرة، واخذت تندب غباءها وأنانيتها واندفاعها، ولحسن حظها، لم تصادف عدلان في القرية خلال تلك الأشهر، فقد كان

دائم التجوال بشاحنته، يكره العودة إلى البلدة، وإن عاد لم يمكث سوى ليلة ثم يغادر.

ظلت على هذه الحال أكثر من سنة، حتى تقدم ابن خالتها، المقيم في المدينة الساحلية، لخطبتها، وافقت دون تردد، تزوجته في صيف تلك السنة، وغادرت القرية نهائيًا، وانقطعت أخبارها عن البلدة منذ ذلك الحين.

الفصل الخامس: صحوة الضمير

تحول عدلان إلى شاب طائش خفيف الظل، تسيطر عليه أهواؤه الجامحة، وأصبح نافد الصبر، متعجلاً، مولعًا باللهو، لم يعد يهتم إلا بجمع بعض المال لإشباع رغباته اللحظية، علّه ينسى ألم الصدمة وحرقة الفراق التي تركتها سلمى في قلبه، فما إن يحقق ذلك حتى يهدأ على الفور، ولو مؤقتًا.

وذات خميس، بعد أسبوعين من فراقهما، عاد إلى البيت وقد أنهكه السكر، دخل مترنحًا، وجلس على مقعد في المطبخ بجانب طاولة الطعام، وبدأ يضرب عوارضها الخشبية بقبضته صائحًا: "العشاء يا أمي"!

اقتربت أمه، جلست إلى جانبه، لفت عنقه بذراعيها، وجذبت رأسه إلى صدرها.

لكنه أبعدها صائحًا: "هيا يا أمي، أسرعي، أنا أتضوّر جوعًا"!

ردت بحزن ممزوج بالعطف، وهي تواصل احتضانه: "ماذا فعلت بنفسك يا ولدي؟"

تمتم متلعثمًا، يحرك لسانه بصعوبة: "لا، لم أفعل شيئًا، أنا فقط أشعر بدوار،" ثم أردف بسؤال: "اسمحي لي أن أشعل سيجارة".

نظرت إليه حائرة، ودفعته بيديها قائلة: "أنت سكران، لماذا تفعل هذا بنفسك يا ولدي؟ "

كانت تلك أول مرة يعاقر فيها الخمر، لقد أنهكته السكرة، وأفقدته وعيه تمامًا، وظل سؤال يتردد في رأسه: "لماذا خدعتني؟ لماذا استبدلتني؟" شعر بضيق من حنان أمه وعطفها، تأثر بحزنها وكآبتها التي انعكست على وجهها، ورأى الشفقة في عينيها، وغلبته رغبة جارفة في البكاء، لكنه تظاهر بمقاومة هذا الشعور، متصنعًا سكرًا أشد مما هو عليه.

بدأ يشعر بالغثيان والاشمئزاز، وبعد نوبة قيء شديدة، رافقته أمه إلى فراشه، بلّلت منشفة ووضعتها على جبينه الشاحب، ثم لفت رأسه بخرقة بالية، فاستعاد شيئًا من رشده، لكن الأشياء ظلت تدور حوله، تسبح تحته وفوقه، وأجفانه ثقيلة عجز عن رفعها، وطعم كريه يملأ فمه.

سمع صوت أمه من جديد، كأنه يأتي من بعيد: "لا تعتد الشرب يا بني، فإنه سيزيد شقاءك،" حاول رفع رأسه قليلاً ليصغي، فتذكر أنه لم يكن يشعر بوجودها في البيت حين كان صغيرًا، عندما كان إخوته لا يزالون يعيشون معهم، كان يبتعد عن الدار قدر استطاعته، هربًا من الاحتقار والتعنيف، فترعرع بعيدًا عنهم.

أخذ عدلان يتعاطى الخمر بلا رادع ولا هدف، وخلال ذلك جعل يجوب الأرجاء متشكيًا متباكيًا، يشكو خيانة سلمى وهجرها وخداعها، يروي شقاءه للناس دون وعي منه، لقد رحلت إلى تلك المدينة الساحلية حيث تحررت تحررًا لم يخطر بباله.

صار يمكث أيامًا، قد تمتد أحيانًا إلى أسبوع كامل أو أكثر، في إحدى الخمارات، سكرانًا يقضي أوقاته مع نساء عاهرات، كان يبيت في فندق يعلوها، يأمل أن ينسى همه وغمه، وما يمزق قلبه من لوعة الفراق ويقتلع عروقه من صدمة الخداع، يشرب حتى الثمالة، يرقص معهن، يلهو بلا انقطاع، وأحيانًا يبكي بشدة حين ينفرد بنفسه.

وكان من بين أصدقائه جاره عزيز، شاب بارع في الموسيقى، متمكن بشكل خاص في العزف على الأورغ، كان شابًا شهمًا وفنانًا، دفعته ظروفه القاسية والفراغ الموحش في القرية إلى التنقل والعمل في ملهى ليلي بالمدينة، صادف أن التقاه عدلان ذات يوم هناك، حين ذهب للسهر، رحب به عزيز، ودعاه تلك الليلة للسهر على حسابه دون أن يدفع قرشًا واحدًا، وأوصى بعض الفتيات العاملات بتدليله، كان عزيز يتناوب مع شاب آخر على العزف؛ تارة يجلس مع عدلان عندما يحين دور زميله، على تلك الطاولة المترعة بأفخر الخمور وأشهى المأكولات، وتارة يصعد إلى المنصة لأداء أغانٍ ووصلات موسيقية، كانت سهرة متنوعة، ابتهج فيها عدلان كثيرًا، نسي بعض همومه، وتعرف على مغنين وموسيقيين وفتيات متنوعات من مغنيات وراقصات وعاهرات وعاملات، ومنذ ذلك الحين، أصبح يتردد على الملهى بين الحين والآخر، متى سنحت له الفرصة وتوفر المال.

كان الفندق يقع على أطراف المدينة، ويضم خمارة وملهى ليليًا للسهر والمجون، يرتاده كثير من أصحاب الأموال والمهربين والإداريين الفاسدين، بل وحتى بعض الضباط والعسكريين، كان الملهى صالة واسعة مقسمة إلى

أجزاء متعددة: عند مدخلها، خُصص مكان لتوزيع المشروبات والمأكولات بأنواعها، وعلى يسارها قاعة كبيرة رُصت فيها طاولات دائرية ومربعة، أحيطت بكراسي متشابهة الألوان، موزعة بمسافات متساوية لجلوس الزبائن، وفي أقصى اليمين، رُفعت مصطبة مخصصة للفرقة الموسيقية، بينما توسطهما ساحة مربعة صغيرة، أحاطتها أضواء أرضية، وسلطت عليها أنوار من كل الجهات لتكون مسرحًا للرقص، لم تكن هذه القاعة تفتح أبوابها إلا بعد العاشرة ليلاً، إذ يقضي الزبائن ساعات النهار والمساء الأولى في الخمارة الخارجية المطلة على حافة الطريق المؤدية إلى الحدود الشرقية.

كان عدلان يواظب على الذهاب إلى ذلك الفندق، حيث يلتقي بالشاب عزيز ويجلسان معًا في الخمارة، رفقة بعض الأصدقاء من أبناء البلدة الذين يصادفهم هناك، وبعضهم الآخر ممن تعرف عليهم حديثًا أثناء معاقرته للخمر في الملهى، ولا تخلو جلساتهم من الفتيات العاملات بالملهى والراقصات والعاهرات، يظلون يتسامرون ويتحاورون، وأحيانًا يتجادلون حول ما حدث في السهرات السابقة، حتى يهبط الظلام، ثم ينتقلون إلى داخل الملهى مع بداية السهرة ويتناولون العشاء هناك، كان أفراد الفرقة

الموسيقية يتناوبون طوال الليل على العزف؛ فكل آلة يتداولها عازفان، وأحيانًا ثلاثة، بينما كانت الوصلات الغنائية يؤديها عدة فنانين أيضًا، حسب طلب الزبون الذي يدفع أموالًا أكثر، وما إن تبدأ السهرة حتى تُطفأ الأضواء الساطعة، وتبقى الأنوار الخافتة الملونة بألوان شتى، لتخلق جوًا من المرح والبهجة، يتجمع بعض أفراد الفرقة الموسيقية فوق تلك المصطبة، ويبدؤون في عزف الألحان المحبوبة، بينما يؤدي المغنون الأغاني المشهورة، تمتلئ القاعة بالسكارى من مختلف الأعمار، شباب وكهول وشيوخ، وفتيات متجملات بأفضل أنواع الزينة وأجمل الملابس المغرية العارية، ومع تقدم السهرة، تمتلئ تلك الساحة المربعة الصغيرة بالراقصين السكارى وهم يترنحون، يتمايلون على أنغام أغاني الراي المحبوبة، وما إن يصعد الشاب عزيز ويبدأ بالعزف على آلة الأورغ، حتى تهتز القاعة بأكملها ويعمها مرحٌ عام، وينطلق احتفالٌ صاخب، فمهارته الكبيرة تجعل الجميع في القاعة ينتظرون دوره، بل إن البعض يدفع أموالًا طائلة للمطالبة بصعوده إلى المنصة فورًا.

وكان أحد رفقاء عدلان، المدعو زهير، قد أصبح يلازمه في الذهاب إلى الملهى كل نهاية عطلة أسبوع، كان أول المطالبين بالخمر قائلًا: "أريد أن أشرب، أريد أن أسكر تمامًا، كالمرة السابقة، هل تتذكر يا عدلان؟"

فيرد عليه عدلان مستهزئًا: "هذه الليلة ستعود إلى القرية زاحفًا على بطنك، سأجعلك تسكر حتى الثمالة".

بينما يطلب بقية المرافقين من سائق السيارة، التي يذهبون بها إلى الملهى، ألا يشرب كثيرًا، لأنهم في أغلب الأحيان كانوا يسهرون ويعودون أدراجهم مع تباشير الفجر إلى القرية، ونادراً ما يبيتون في الفندق.

كان الشاب عزيز الوحيد الذي له غرفة داخل الفندق، يبيت فيها رفقة مجموعة أخرى من الموسيقيين، وفي أحيان قليلة، يعود مع عدلان وزهير أو بعض مرتادي الملهى من أهل القرية إلى البلدة، ليرتاح يومًا على الأكثر ويطمئن على عائلته، ثم ما يلبث أن يعود مسرعًا خلال ذلك المساء إلى عمله في الملهى.

كانت حالة عدلان النفسية أشبه بالهذيان، إذ كان يتوقع سعادته في كل ليلة يقضيها هناك، ولم يكن يتردد في إرسال جرعات متتالية من الخمر إلى جوفه، خاصة إذا التقى بتلك الشابة التي تعرف عليها مؤخرًا بفضل صديقه الشاب عزيز، كانت تلك الفتاة تسترعي انتباهه من قبل، حين تجلس على طاولة قبالته، أو عندما تقوم لترقص تارة أخرى، وكانت هي بدورها مفعمة بالهياج، مضطربة النفس، لا تهدأ عن الحركة الكثيرة، تعمل في هذا الملهى منذ سنتين، وهي فتاة تختلف عن بقية فتيات الملهى، قصت على عدلان قصتها المروعة ذات ليلة، حين سكرت حتى الثمالة في إحدى الليالي التي بات فيها عدلان في الفندق برفقتها، شعر بالشفقة عليها، وهي أيضًا بدأت ترتاح إليه، حتى صارت تأخذ يوم راحتها من العمل في الليلة التي يأتي فيها عدلان إلى الملهى، وتقرر أن تسهر برفقته فقط، دون أن تمارس عملها المعتاد كباقي الفتيات في استدراج الزبائن وسلبهم ما في جيوبهم من أموال بإغرائهم، جعلهم ينتشون ويسكرون حتى الثمالة، فيفقدون وعيهم ويصابون بهستيريا حب الظهور والبذخ والتفاخر، ويرمون أموالهم يمينًا وشمالًا.

وما إن ينطلق الغناء والرقص، حتى تقفز الفتيات ويتوزعن للجلوس على مختلف الطاولات، كن يعرفن الزبائن فردًا فردًا، ولا يقتربن إلا من أصحاب المال والنفوذ وذوي الجاه والقوة، يتنافسن في استخدام شتى الحيل والإغراءات ليسلبن من جلسائهن ما في جيوبهم من أموال، بملء الطاولات بأغلى وأجود أنواع الخمور وأشهى المأكولات، ويطلبن منهم دفع مبالغ مالية أكبر للمغنين لأداء بعض الأغاني والوصلات الموسيقية المشهورة التي يحببنها وينتشين بها، ويطلبن من المغنين ذكر أسمائهن وأسماء جلسائهن بين مقاطع الأغنية ذاتها، كان ذلك يعد تفاخرًا ورفعة كبيرة وتميزًا عن الآخرين، تتباهى به الفتيات فيما بينهن، والزبائن بين بعضهم أيضًا.

كان أغلب هؤلاء الزبائن لا يقيمون للأموال وزنًا، خاصة إذا اشتد سكرهم وأرادوا التباهي وفرض أنفسهم على بقية الحاضرين في القاعة، وكان من بينهم من يقع في فخ التباهي المفرط وحب الظهور والسيطرة على مجريات الأحداث في القاعة تلك الليلة أيضًا، ولا يترددون في إخراج كل ما في جيوبهم من أوراق مالية، ينثرونها فوق رؤوس صديقاتهم وهن يتمايلن ويرقصن، ويدفعون بعضها للمغنين لإعادة أداء الأغاني والوصلات التي

يحبونها مرات عديدة، ولذكر أسمائهم وأسماء أصدقائهم وصديقاتهم وسط تلك الوصلات والأغاني بافتخار، وهذا ما كان يدفع صاحب الفندق إلى التحرك حول هؤلاء الزبائن المعروفين، لحمايتهم في أغلب الظن.

أما عدلان، فكان يشعر بالارتياح ويزداد انتعاشًا ونشاطًا كلما ازدادت الفوضى والسخف في هذه السهرات، وإذا ما صادف أن التقى ببعض الزملاء القدامى، يعانقهم بحرارة، ويستعيد معهم ذكريات سابقة، ويدفع لهم ثمن بعض زجاجات الشراب، وأحيانًا العشاء أيضًا، كان الناس يشربون بفوضى عارمة لا يردعها شيء.

نعم، لقد لهى وعبث وتلذذ هناك، كان ينثر ألوف الدنانير ليغوي الفتيات، فيعشق سيدة اليوم، ثم يفضل عليها في الغد إحدى بنات الشوارع، ويبقي على هذه وتلك، ويلقي بالنقود دون حساب، الموسيقى تصدح، والصخب يعلو، والعاهرات يحطن به، فكان يرمي إليهن المال كلما اقتضى الأمر، وهن بدورهن يحرصن أشد الحرص على ذلك، ويقبلنه فرحات ممتنات، وعند عودته متأخرًا من تلك السهرات، كانت تجذبه

الحواني الضيقة والأزقة المظلمة المسدودة، البعيدة عن العمران، فهناك المغامرة، وهناك ما لا يتوقعه، وهناك تحدث المفاجأة.

حتى إنه في أحد الأيام، عندما عاد مبكرًا وهو سكران حتى الثمالة، وبفضل الظلمة، أمسك بيد فتاة كانت جارته في نفس الحي، وأجبرها على الاستسلام لقبلاته، كانت شابة مراهقة، ابنة عامل بسيط، فتاة فقيرة وحلوة، عذبة طيبة لطيفة، سمحت له المسكينة أن يتمتع بحريات كثيرة في الظلام، وهي تتخيل أنه سيذهب في الغد إلى والديها ليخطبها، لكنه لم يوجه لها كلمة واحدة بعد ذلك، وتجاهلها تجاهلاً تامًا، كان يراها تتابعه من بعيد، ثم تزوجت موظفًا بعد سنتين، وسافرت دون أن تغفر له أو تصفح عنه، ولعلها ظلت تحبه، لكنه لم يروِ هذه الحكاية لأحد، ولم يعرض سمعة الفتاة لسوء، صحيح أن رغباته أصبحت منحطة، وأنه صار يجد لذة في الانحدار إلى حضيض الخسة، لكنه لم يكن خاليًا تمامًا من العفة والشرف.

ورغم محاولاته اللهو والمجون، لم يستطع أن ينسى حبه الأول، عاوده الحنين من جديد، فسافر إلى تلك المدينة أحيانًا كثيرة دون أن يعرف

السبب أو الهدف الذي يسعى إليه من وراء هذا السفر، سوى أنه كان يذهب إلى تلك الأماكن التي اعتاد زيارتها رفقة سلمى، ويجلس فيها وحيدًا، يتذكر كل لحظة قضاها معها هناك، متألمًا وباكيًا على ضياع ذلك الحب الأسطوري الذي أوهم نفسه به طوال تلك السنين، نادمًا على كل ما بذله في سبيل الحفاظ عليه.

كان الناس يلاحظون نظرته القاتمة الواجمة، ويدهشهم أحيانًا أن يروه ينفجر ضاحكًا فجأة، ضحكًا كبيرًا يدل على مشاعر فرحة مرحة، يندفع فيها في اللحظة ذاتها التي تتجهم فيها عيناه، لكن ما يظهر على سحنته من مظاهر الحزن لم يعد يدهش أحدًا الآن، فقد عرف الناس جميعًا الحياة المضطربة القلقة التي أصبح يعيشها بعد مغادرة سلمى القرية، أو سمعوا عن انفصاله عنها في الآونة الأخيرة، حتى إن أهل مدينتهم تناقلوا عن ذلك قصصًا وحكايات كثيرة، والحق أنه أصبح غضوبًا، مشوش الذهن، مندفعًا، ويسيء التصرف في كثير من الأحيان دون قصد، وكأن قوة خفية قاهرة أصبحت تدفعه إلى ذلك.

ظلَّ على تلك الحالة أكثر من ثلاث سنوات متتالية، هائمًا على وجهه، عاجزًا عن إيجاد سبيلٍ يُنسيه الجرحَ الذي استقرَّ في أعماقه، لقد تألَّم في صمتٍ طويلًا، وبكى في الظلام مراتٍ عديدة، وحاول أن يُجبر نفسه على النسيان باللهو والمجون، لكنه فشل في كل ذلك، لم يتبقَّ له إلا طريقٌ واحد، نصحه به رفيق دربه إسماعيل ذات يوم، وهو أنه لن يتمكن من نسيان حبِّه وتعلُّقه بامرأة إلا بحبِّ امرأة جديدة .

تذكَّر حينها أن زوجة أخيه الأكبر كانت قد دلَّته في أحد الأيام على ابنة أختها، تلك الفتاة التي كانت تسأل عنه في مناسباتٍ كثيرة، نعم، هي نفسها التي توسَّلت إليه بإلحاحٍ شديد في البطاقة التي أرسلتها مع زوجة أخيه قبل أيامٍ قليلة، داعيةً إياه للحضور إليها من أجل أمرٍ ما، هذا الرجاء دفعَه إلى تلبية دعوتها، اضطرارًا لا مفرَّ منه .

كلُّ ذلك ملأ نفسه منذ البداية بشعورٍ غامضٍ يعذِّبه، شعورٌ ظلَّ يتفاقم شيئًا فشيئًا طوال ذلك المساء الذي قرَّر فيه الذهاب إليها، حتى تحوَّل إلى ألمٍ حارقٍ كالجمر، عجز عن كبته أو السيطرة عليه.

فانطلق مسرعًا إلى المدينة حيث يقيم أخوه خالد، كان قد طلب من زوجة أخيه، قبل أيام، عندما زارهم في آخر عطلة أسبوعية، أن تحدد له موعدًا مع ابنة أختها نورة في أقرب وقت ممكن، متى سنحت الفرصة للقائها، وهذا ما تحقق فعلًا، إذ أرسلت زوجة أخيه في طلبه عبر تلك الرسالة، داعيةً إياه للحضور إلى منزلها يوم الخميس.

ان الأحداث التي تعاقبت في حياته، والمشاهد والوقائع التي توالت عليه، لم تمنحه معرفةً عميقة بالنساء، فقد عاش طفولته وحيدًا، ولم يعرف في حياته امرأة بصورة واضحة، باستثناء سلمى، تلك الفتاة الجميلة، وبعض العلاقات العابرة التي لم يبتغ منها سوى اللهو والمتعة ونسيان همومه وتمضية الوقت، هذا ما جعل مشاعره تختلط بالخوف من نورة منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها، رغم أنه لم يلتقِ بها سابقًا إلا مرة أو مرتين أو ثلاثًا على الأكثر، ولم يتبادل معها سوى بضع كلمات عابرة في إحدى المناسبات، ان الصورة التي استقرت في خياله عنها كانت لفتاة فائقة الجمال، شديدة الكبرياء، قوية الهيبة، لكن لم يكن جمالها هو ما يؤثر فيه، بل كان هناك شيء آخر يعذبه، شيء لم يستطع تفسيره أو تعليله، هذا

الجهل زاد من خوفه، وفاقم من توتره في تلك الساعة، فلم يملك إلا أن يمجدها وينصفها في قرارة نفسه.

تقيم نورة في قلب المدينة المزدحم، بالقرب من المسجد العتيق، مع والديها وأخوين وأخت، جميعهم أصغر منها سنًّا، يعيشون في منزل قديم بُني في زمن الاستعمار، واسع ومكون من طابقين، لكنه متآكل بعض الشيء، ولا يحمل في مظهره ما يجذب الانتباه، ورغم ذلك، كان المنزل يأويهم جميعًا، إلى جانب الضيوف الذين لا ينقطعون عنهم، خاصة الأهل والأنساب القادمين من الضواحي، يمكث هؤلاء أيامًا في المدينة، إما للتداوي، أو لإنجاز وثائق إدارية، أو للتسوق وشراء المستلزمات، كان والداها طيبين، يفرحان كثيرًا بقدوم الضيوف من أهل القرية وسائر الضواحي، ويستقبلانهم بترحاب.

نورة الآن في الثالثة والعشرين من عمرها، وقد أكملت دراستها الجامعية مؤخرًا، فأقامت في البيت، لا يعرف الناس في المدينة عنها سوى القليل من ماضيها، وما يُردَّد عنها من معلومات ينقصه الدقة والوضوح، لهذا، قرر عدلان أن يتقرب منها ويتعرف عليها مباشرة، دون أن يسأل عنها أحدًا، كان

منهكًا جدًا، بعد خروجه من تلك الصدمة ونهاية ذلك الحب الذي بناه حجرًا بحجر، ظانًّا أنه لن ينهار أو ينتهي أبدًا، لكنه انتهى في لمح البصر، ورغم مرور ثلاث سنوات كاملة، ظل ذلك الألم يوخز قلبه أحيانًا، كشوكة اندست بين ثناياه، تقرص شراينه كلما تذكر بعض الأحداث أو مرت برأسه، فتنغِّص عليه راحته، وتنزع عن أجفانه رداء النوم.

أصبحت الفتاة في الآونة الأخيرة حسناء رائعة، فقد كانت حياتها خالية من معرفة الرجال إلى حد كبير، باستثناء ذلك الضابط المجهول الذي أغواها في التاسعة عشرة من عمرها، عندما خطت أقدامها الجامعة لأول مرة، لكنه لم يلبث أن هجرها بعد سنتين فقط، وسافر بعدما نُقل عمله إلى منطقة بعيدة، ثم تزوج من امرأة أخرى، تاركًا الصبية الشقية المسكينة تواجه البؤس والعذاب، وأصبحت نحيلة الجسم، ضعيفة البنية، كثيرة الوجوم، حزينة النفس، جراء لوعة الفراق والوحدة التي عانت منها .

لكنها، بعد سنتين من ذلك، استعادت قوتها تدريجيًا في عامها الأخير هذا، نسيت، أو تناست، ما ألمَّ بها، وتحولت في غضون سنة واحدة إلى حسناء

بضة الجسم، متورّدة الخدين، جريئة جسورة، لا تخلو من الكبرياء والأنفة، وبعد تلك الخيبة التي مرت بها، صارت فتاة صعبة المراس، يستحيل الوصول إليها، لم يتمكن رجل واحد من الاقتراب منها، أو التباهي بأنه نال منها شيئًا، باستثناء ذلك الضابط الذي أحبته ثم هجرها، فقد حاول رجال كثيرون، لا سيما في السنوات الثلاث الأخيرة بعد تخلّي الضابط عنها، التقرب منها، والتودد إليها، أو خطبتها، لكنهم لم يظفروا بشيء، وباءت جميع محاولاتهم بالفشل والإخفاق، إذ كانت تصدهم وتمنعهم من الاقتراب بشتى الوسائل، حتى إن العديد منهم اضطر إلى الانسحاب، وسط سخرية وتهكم، بسبب ما تتمتع به الشابة من عزيمة صلبة، إرادة قوية، وروح ساخرة.

كان لا بد أن يجري الحديث بينه وبينها في خلوة، وهذا ما تحقق فعلًا، فقد رسمت زوجة أخيه المشهد كاملًا، ومهَّدت له الطريق، وحددت موعدًا ليلتقيا بمفردهما في منزلها في مساء يوم الخميس، نسَّقت الأمر مع والدتها، بعد أن سافر والدها إلى العاصمة لحاجة تخصه.

لم يستطع عدلان التغلب على القشعريرة التي سرت في ظهره كلما اقترب من منزلها، وحين وصل إلى مسكنها، كان الظلام قد خيَّم على المكان، ولم تُشعل الأضواء في الغرف بعد، كانت نورة مضطجعة في الصالون على أريكة كبيرة ثقيلة ذات مسند، مستلقية على ظهرها بهدوء، مسندة رأسها على وسادتين بيضاوين أخذتهما من سريرها، واضعة ذراعيها تحت رأسها، كانت تشاهد مسلسل بداية المساء كعادتها، مرتدية بيجاما حريرية بلون الرمان الغامق، وما إن سمعت قرع الباب وصوت عدلان على عتبة المدخل، حتى قفزت بسرعة مذهلة، هيأت الأريكة، حملت وسادتيها، وجرت كالبرق نحو غرفتها.

أسرعت أمها وفتحت له الباب، ورحبت به بسرور، داعيةً إياه إلى الدخول إلى الصالون قائلة: "مرحبًا يا بني، تفضل، أنت من أهل البيت، ولا تعتبر نفسك غريبًا".

رد عليها وقد احمرَّ أنفه وتورَّدت وجنتاه، وهو يعبر عتبة الصالون، بصوت خافت مبحوح: "شكرًا لكِ سيدتي الكريمة ".

جلس على تلك الأريكة نفسها التي كانت نورة مستلقية عليها قبل قليل، استمرت القشعريرة تسري في عروق ظهره، صاعدةً إلى كتفيه ورأسه، وتسارعت دقات قلبه، وتندى جبينه بعرق خفيف، أطرق برأسه حياءً من أمها التي جلست قبالته، ثم اعتدلت في جلستها وقالت: "لا تستحِ يا بني، أنت في منزلك".

أجابها بخفة وهو يتململ في مكانه: "أعرف سيدتي، فنحن أنساب وأهل،" بدأت دقات قلبه تبطئ تدريجيًا، وشعر بشيء من الهدوء يتسلل إليه، خاصة بعد أن التحقت زوجة أخيه بهما وجلست معهما، مما خفف عنه وطأة الحياء، دار بينهم حوار قصير، دار معظمه حول أخبار صحة أهلهم في القرية والمدينة، وتوقف ابنتها عن الدراسة مؤخرًا، وعن عمله، وأحوال والديه وبقية إخوته وأهله.

وبعد ذلك ببضع دقائق، دخلت نورة على استحياء، حاملةً صينية تحمل القهوة وبعض أنواع الحلويات اليدوية التي بدت وكأنها صنعتها بنفسها، ربما لتظهر مهارتها في الطبخ أمام ضيفها، انحنت أمامه لوضع الصينية المزخرفة

المحملة بأشهى الحلويات، ثم مدت إليه يدها الرقيقة وصافحته بسرعة، متصنعةً هيئة الوقار والرصانة.

هزَّ عدلان رأسه نحوها، وألقى عليها نظرة متيقظة، ثم دنا منها ومدَّ يده هو الآخر، مصافحًا إياها بابتسامة غريبة تخالطها الكثير من الارتباك والحرج.

جلست نورة على الأريكة المقابلة له بخفة ونشاط وحيوية، وأخذت تنظر إليه بنشوة وسرور، كانت تشعر حقًا بالسعادة لرؤيته، وعيناها تلمعان بالمرح واللطف.

رفع عدلان رأسه في الوقت نفسه ليسترق بعض النظرات إليها، ثم صاح في قرارة نفسه: "يا إلهي، لقد كبرت الفتاة وأصبحت كحورية البحر! ازدادت جمالًا، وأشرقت كالشمس!" لم يكن يتوقع أن يرى في وجهها كل هذا التعبير من الطيبة، لم يرها سابقًا إلا نادرًا، حين كانت لا تزال فتاة صغيرة غرَّة، ولم يعرفها معرفة عميقة، ورغم الحزن الذي لا يزال يرهقه حتى تلك اللحظة، ينتابه أحيانًا كلما تذكر شيئًا، أو مرَّ شريط من الذكريات في مخيلته أمام

عينيه، ذلك الحزن الذي لا يزال يلازمه منذ سنوات جراء فراقه عن سلمى، إلا أنه لم يستطع منع نفسه من التحديق في الشابة الحسناء والتفرُّس في ملامحها.

كانت حركاتها خالية من التكلف، سريعة، بسيطة، مباشرة، واثقة، تشعُّ طيبةً وتنطلق على سجيتها، رغم ما بدا عليها من اضطراب وقلق طفيف، لقد كبرت الفتاة منذ آخر مرة رآها فيها عدلان، قبل بضع سنوات في إحدى المناسبات، كانت حينها طفلة صغيرة ضعيفة، أما الآن فقد أصبحت فتاة طويلة القامة، وجهها بيضاوي مستدير كأنه القمر، والذي انغمس بين خصلات شعرها الأسود المتدلي على كتفيها، الذي يشبه ليلًا حالك السواد، وفي وسطه ارتسمت عيناها السوداوان الواسعتان، وتحتهما أنفها الرقيق المعتدل كمنقار عصفور، وأسفله ثغرها الصغير الشبيه بخاتم من ياقوت، وزادها طولها ورشاقتها هيبةً ووقارًا، كأنها خرجت من حكايات الأميرات وقصص الخيال.

مرت مدة طويلة لم يرَ فيها كلاهما الآخر، كانت هي أيضًا تسترق إليه بعض النظرات، متى حَوَّل نظره عنها أو انغمس بعينيه نحو الأرض.

وفجأة، نطقت زوجة أخيه قائلة: "ها أنتما معًا!" ثم ضحكت وهي توجه كلامها لعدلان: "ألا تُرحب بخطيبتك المستقبلية؟ لقد أرهقت أذني من كثرة سؤالك عنها"!

هزَّ عدلان رأسه مبتسمًا وقال: "ومن يستطيع أن يرى هذه الرقة والجمال، ولا يرحب بهذه الياقوتة؟"

ابتسمت والدتها، كأنما أعجبها هذا المديح والإطراء لابنتها، وقالت له بهيبة ووقار: "نريدك أن تعود لزيارتنا متى أردت وكيفما شئت، أنت لست غريبًا عنا".

تدخلت زوجة أخيه مرة أخرى، كأنها تتحدث نيابةً عنه، قائلة: "أكيد سيأتي لزيارتكم، وإن لم يفعل ذلك، سأجره بنفسي"!

ابتسم عدلان، وكأنه كان ينتظر منهم هذا الإصرار على دعوته مرة أخرى، لكنه لم يعقِّب بكلمة، وخطف نظرة التقت فيها عيناه بعيني الفتاة، التي ما لبثت أن خفضت عينيها إلى الأرض في استحياء.

اقتربت منه نورة وقالت، والابتسامة تعلو شفتيها الرقيقتين: "يا إلهي، لماذا أشعر بهذه السعادة كلها برؤيتك؟"

ما أعظم السعادة التي شعر عدلان أنه قد ينالها! صحيح أن نورة لم تكن قد وعدته بشيء في تلك اللحظة، وأنها كانت تتعمد تجنب أي شرح الآن، لكنها كانت تنظر إليه خلسةً من حين لآخر، وقد فاضت عيناها رقةً وحنانًا، فجأة، أمسكت يده، وجذبته إليها بقوة، وقالت وهي تحبو على ركبتيها: "ما أغرب هيئتك حين دخلت علينا منذ قليل! أوه، لقد تملكني خوفٌ ممزوج بفرح شديد".

دمدم عدلان قائلًا: "لقد أصابتني نفس الأعراض، واقشعر جسمي وأنا على عتبة الباب، أما الآن، وأنتِ تمسكين يدي، فقد زال كل ذلك عني وتحول إلى فرح عظيم".

ثم جذبته من يده وسحبته ليقوم إلى الأريكة المقابلة، وقالت له: "اجلس بجانبي الآن، وأخبرني كيف غيَّرت رأيك وقررت أن تأتي لتتعرف عليّ؟"

بدأ عدلان يقصُّ عليها بحرارة، لكن بفوضى، فلم يكن في سرده تسلسل كبير، والغريب أنه كان يتوقف عن الكلام أحيانًا، يقطب حاجبيه، ويظل يتفرَّس فيها.

قالت له: "ما بك؟"

أجابها: "لا شيء، لقد تركتُ في البلدة أعمالًا كثيرة".

نظرت في عينيه وقالت: "أحب أمثالك المجانين قليلًا،" ثم سألته وهي تفتح عينيها على أقصاهما: "هل أنت مستعد أن تجازف بكل شيء في سبيلي؟"

أومأ برأسه، يحركه صعودًا ونزولًا، مبتسمًا دون أن ينطق.

سألته مجددًا: "ما لي أراك حزينًا هذا الحزن كله؟ إني ألاحظ أنك مهموم"!

وأردفت قائلة: "نعم، ألاحظ ذلك عليك، مهما ضحكتَ ومزحتَ مع الآخرين، فإني أدرك أن هناك شيئًا يعذبك، كُن فرحًا، أريد ذلك، أنا فرحة، فعليك أن تفرح أنت أيضًا".

اقترب منها حتى التصق بها، وأمسك يدها مجددًا، وضغط عليها بقوة، دون أن ينطق بكلمة واحدة.

شعر عدلان بشعور غريب يكتسح قلبه، ونشوة من السعادة تسري في جسده كله، كأن تيارًا من الحنان انتقل عبر أناملها الرقيقة وأصابعه الخشنة ليغمر روحه، فمنذ انتهت علاقته بسلمى، لم يشعر بهذا الإحساس أبدًا، حتى حين كان يتنقل بين تلك الفتيات المومسات أثناء مبيته في الفندق وسهره في ذلك الملهى الليلي، كانت عواطفه حينها مجمدة، منفصلة عن بعضها، لا يتحرك فيه سوى غرائزه وشهوانيته، أما في هذه اللحظة، فكأن أحاسيسه عادت والتحمت من جديد، كما كانت في السابق عندما كانت بريئة عذراء، لم تشبها شوائب الزمن، ولم تشوهها مصائب الخداع والنكران.

"بقيا أكثر من ساعتين بمفردهما في الصالون، وفي تلك المدة القصيرة، كأنما تكثّف الزمن ليختصر أحداث سنوات، لم يتبادلا خلال تلك اللحظات كثيرًا من الكلام، لكن أرواحهما التقت عبر النظرات وبعض الكلمات المقتضبة والتلميحات، دون حاجة إلى شروح طويلة أو تفاصيل دقيقة، كأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد، وكأنهما عطشانان تائهان في صحراء قاحلة طويلة، فوصل كل منهما إلى واحة خضراء غنّاء، يتدفق ماؤها الصافي من أعماق الأرض ليروي تلك الخضرة اليانعة، أو كغريقين في وسط البحر، كان كل منهما ينتظر قشة يتعلق بها، عساها تنقذه من الغرق وتحمله إلى بر الأمان، فقد خرج كلاهما من صدمة حب أول ظناه الأبدي والوحيد، وكان كل منهما تائهًا وحيدًا، ينتظر من يمد له يدًا تنتشله من براثن الوحدة والعزلة، فالتقت أرواحهما، وتشابهت قلوبهما واحتياجاتهما، دون أن يعرف أحدهما ماضي الآخر، فألف بين قلبيهما شعور بالألفة والاشتياق العميق".

"توالت زيارات عدلان إلى منزل نورة، فأصبحا يلتقيان بين الحين والآخر، وقرر أن يتوقف عن الشرب ويعتزل أولئك الأصدقاء الذين كانوا يصطحبونه إلى الملاهي والفنادق للهو والمجون، واستقامت طباعه، وبدأ

يستعيد رشده، رغم أن علاقته بنورة لم تتجاوز ثلاثة أشهر فقط، ثم أعلن خطبتها في حفل عائلي صغير وبهيج، دامت خطوبتهما نحو ثلاثة أشهر أو أكثر قليلًا، عاش خلالها عدلان مع نورة أيامًا جميلة أنسته سنواته العجاف، تلك التي تعذب فيها بسبب خديعة أليمة تعرض لها، وطعنة قاسية تلقاها من سلمى التي أحبها بعنف، تعلق قلبه من جديد بهذه الفتاة الحسناء البهية، لا سيما أنها كانت تلتقيه كثيرًا، تغدق عليه بالحب والحنان والعطف، وتملأ ذلك الفراغ الرهيب الذي كان يعانيه، بالفعل، أنسته همومه السابقة، فأصبح يعيش برفقتها أيامًا سعيدة، ويخططان معًا للزواج والإنجاب، والانتقال للعيش في مكان بعيد عن هذه المنطقة تمامًا".

"لكن لسوء حظ عدلان، بلغت أخبار تلك الخطوبة مسامع ذلك الضابط المشؤوم الذي كان على علاقة سابقة بنورة، كان قد عاد منذ أشهر قليلة من بلاد بعيدة اختفى فيها لسنوات، بعد أن طلّق زوجته الأولى التي لم تنجب منه أولادًا، وسبق أن اتصل بنورة مرات عديدة محاولًا استعادتها، لكنها صدّته مرارًا ورفضت لقاءه، غير أن إصراره الدائم وتصميمه على الرجوع إليها أثّرا فيها، فرّق قلبها له، فهو أول حب في حياتها، ويعرف جيدًا ما

بداخلها، ويدرك أنها لم تنسه يومًا وما زالت تحبه، كان يترصدها ويطاردها في كل مكان، حتى رضخت أخيرًا للاستماع إليه في إحدى المرات، وذهبت معه لتناول وجبة غداء، أثّر فيها بشدة بعد أن نسج لها قصصًا مترابطة لتبرير فعلته السابقة حين تخلى عنها وسافر بعيدًا، وتزوج هناك وقطع أخباره عنها، صدّقته، فاشتعلت في قلبها من جديد نيران عواطف قديمة كانت قد طمرتها ودفنتها منذ سنوات، بررت له قبولها بخطوبة عدلان بأنها فعلت ذلك عمدًا، نكايةً فيه وانتقامًا منه، لترد له ما فعله بها حين تخلى عنها، ولتحرق قلبه وتجعله يشعر بنفس الوجع الذي سببه لها سابقًا، ويعيش الألم ذاته الذي عاشته من قبله، ووعدته بفسخ خطوبتها من عدلان في أقرب وقت، بشرط أن يتعهد لها بالزواج منها مباشرة بعدها.

ومنذ عودة ذلك الضابط إليها، وجدت نورة نفسها في ورطة، وتغيرت معاملتها لعدلان، عذبته بقسوة بلا رحمة، وكان أصعب ما في الأمر أنه لم يستطع فهم عواطفها الحقيقية بوضوح، رغم أنها قدمت له كل شيء، وأغدقت عليه بالحب والعواطف، ومنحته ما يحتاجه ليدفن حب سلمى نهائيًا بلا رجعة، وصدّق من قال له إن حب المرأة الثانية ينسي حب التي

قبلها، مهما تعلق قلب الرجل بالأولى، لكنه لم يتمكن من كشف عواطفها الحقيقية بأي وسيلة، سواء بالملاطفة والحب أو بالحيل والقوة، ولو حاول ذلك، لعاندته في كل الأحوال، وربما تركته غاضبة مختنقة، وطوال تلك الفترة، كان يشعر أنها تخفي عنه شيئًا مهمًا، ويدرك أنها تمر بفترة صعبة، وتتخبط في حيرة شديدة، لأنها تارة تعزم على إتمام مراسيم الزواج، وتارة تتردد في اللحظة الأخيرة وتؤجله، وكأن شيئًا خفيًا يمنعها، أما السبب الحقيقي الذي يعيقها، فكان يفوته ولا يدركه، تاركًا إياه في حيرة من أمره".

"لكن الحقيقة التي كانت تعذب نورة، وأخفتها عن عدلان وما زالت تخفيها، تكمن في صراعها بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن تكمل ما بدأته مؤخرًا مع عدلان، أو تعود إلى ذلك الضابط الذي أغواها سابقًا، والذي عاد إليها مؤخرًا بعد أشهر قليلة من بدء علاقتها الجديدة مع عدلان.

أحيا الضابط في قلبها ووجدانها ذلك الحب القديم، وأقنعها بتأكيده واستعداده الكامل لخطبتها وإتمام مراسم الزواج بأسرع ما يمكن، بعد أن تفسخ خطبتها من عدلان، والحقيقة أن ترددها وقلقها ينبعان من حيرتها في

الاختيار بينهما، فلا تدري أيهما أنفع لها وأجدى: هل تعود إلى الضابط المشؤوم الذي احتل قلبها بالكامل في زمن مضى، أم تستمر في رحلتها مع عدلان الذي ظهر في حياتها مؤخرًا، وملأ ذلك الفراغ الرهيب الذي تركه الضابط ذاته، وكانت تخطط لبدء حياة جديدة معه من الصفر، ولم تفضِ نورة إلى عدلان بأي شيء يتعلق بالاتصالات السرية التي كانت تجري بينها وبين الضابط طوال تلك الفترة.

كان عدلان يتوق إلى إتمام مراسم الزواج بسرعة، وأراد أن يأخذها إلى مكان بعيد ليبدآ حياة جديدة لا يعرفهما فيها أحد، كان في ظمأ شديد للتجديد، إذ لا يزال يتألم في صمت من حب فاشل غاص فيه بإرادته مع سلمى، كان يؤمن، مثل كثير من الرجال، أن الخلاص يكمن في تغيير البيئة، فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش في هذا الوسط بعد الآن، متخيلا أنه بمجرد تركه لهذا المحيط، سيتغير كل شيء بين عشية وضحاها، ويبدأ حياة جديدة، كان ذلك أمله، ونحو تلك الغاية كانت تتجه أحلامه.

لكن دون سابق إنذار، أرسلت زوجة أخيه خطابًا دعته فيه إلى الحضور إليها فورًا، كانت نورة قد التقتها سابقًا، وقصت عليها محنتها وحيرتها بين مواصلة الدرب مع عدلان أو العودة إلى الضابط الذي وعدها بإصلاح الأمور والزواج منها عاجلاً، وبعد تخبط طويل، اختارت نورة أن تتخلى عن عدلان وتعود إلى الضابط، لأنها لم تستطع نسيان حبه طوال تلك السنوات، لم تتمكن من مواجهة عدلان مباشرة بهذا القرار، فقررت فسخ الخطوبة على الفور.

وعندما وصل الخبر إلى مسامع عدلان، أصيب بصدمة وحيرة شديدة من جديد، لكنه تماسك وأظهر رباطة جأش أمام زوجة أخيه، وكأنه لم يتأثر كثيرًا، أخبرها أنه يعذر نورة ولها الحق في اختيار ما تريد، وأنه يسامحها على تخليها عنه، لكنه خرج مسرعًا بعدها، وقد أصابه دوار وغثيان شديد، لم يشعر بنفسه إلا وهو يقود شاحنته إلى ذلك الفندق، حيث انغمس في الخمارة، وارتمى على طاولة ملأها بأنواع الخمور المختلفة، أمضى تلك الليلة ساهرًا في ملهى الفندق، وعاد لتعاطي الخمر منذ ذلك اليوم، والتقى بشلته

الفاسدة رفقة الشاب عزيز وصديقه زهير، وانجرف إلى أحضان تلك الفتاة التي تعمل في الملهى دون وعي.

وبعد أيام قليلة، أرسلت نورة إليه تطلب منه أن يذهب إليها ليستعيد ما قدمه من مهر ومقتنيات الخطوبة التي أحضرها استعدادًا لمراسيم الزواج".

"طار إلى المدينة بسرعة عظيمة، كانت المسافة تزيد قليلاً عن سبعين ميلاً، و بفضل سرعة شاحنته المتوسطة، كان بإمكانه قطعها في ساعة وربع تقريبًا، أنعشت نسمات الهواء المنبعثة من نافذة الشاحنة فكر عدلان، فكان الهواء باردًا عليلاً، وقد غادرت الشمس مضجعها وارتفعت قليلاً في سماء صافية جميلة، في ذلك اليوم، كان يشعر بضيق شديد، لكن نفسه، رغم ثقل الهموم التي تثقلها، لم تنصرف عن التفكير فيما حدث مع نورة، كان يتعجل للقائها، ربما للمرة الأخيرة، وقد عزم في نفسه على إنهاء علاقته بها دفعة واحدة، فهو ليس رجلاً يقبل أن يكون محل مقارنة أو اختيار مع شخص آخر، مهما بلغت قوته أو مكانته، سبق أن تخلى عن سلمى، رغم أن حبها أتعبه وأضناه كثيرًا، ورغم أنه رباها بيديه منذ نعومة أظفارها، لكنه

تركها فور علمِه أنها عرفت رجلاً آخر، وأنهى علاقته بها دفعة واحدة، لأنه لا يقبل أن يشاركه أحد حب حياته مهما كان، فغيرته الشديدة وكبرياؤه، اللذان اتّصف بهما، لم يسمحا له بذلك أبدًا، ولم يخطر بباله أن يحتفظ بها ولو مرة واحدة.

هذه المرة، لم يشعر بعاطفة الغيرة القوية تجاه ذلك العائد من بعيد، الضابط الذي لم يكن في حسبانه أبدًا، والذي ظهر في حياته بهذه المفاجأة، بعد أن عرف أنه أول رجل في حياة نورة، لم يشعر بأي غيرة نحوه، ولا حتى بعداوة ضده، الحقيقة واضحة: هو أول حب في حياتها، ولم تستطع نسيانه طوال تلك السنوات التي تركها فيها، هذا يعني أنها لم تنقطع عن حبه لحظة واحدة خلال تلك المدة، أصرّ في نفسه أنه هو من يجب أن يبتعد ويتنحى عن طريقها، ما دام كل شيء سينتهي بالنسبة إليه، بهذه الأفكار كان يحدث نفسه طوال الطريق، معبرًا عن المشاعر التي كانت تتأجج في صدره، اتخذ قراره نهائيًا على حين فجأة، عندما اكتشف مواعداتها لذلك الضابط، قرر إنهاء علاقته بها دون أن يؤذيها، لكنه رغم ذلك ظل يشعر بضيق واختناق

واضطراب أليم، أشياء كثيرة قد تحيرت في نفسه، وأحاسيس مؤلمة عاد وخزها يعاوده بشدة، تربطه بماضٍ أليم عاشه وكان لا يزال يغريه".

"عاد عدلان إلى وحدته التي لازمته منذ أن دبّ على وجه هذه الأرض، أصبح كثير الأسفار والتنقلات في عمله، لا يعود إلى القرية إلا أيامًا قليلة، وانعزل عن الناس كثيرًا، ففقدت الحياة طعمها بالنسبة إليه، حتى حين كان يشعر بنفسه تغرق في بحر الوحدة، وتتلاطمها الأمواج من كل صوب، كان يرى في كل من مرّت بحياته قشة أخيرة قد تنقذه من الغرق في تلك الوحدة القاتلة التي نشأ فيها، كان يظن أنه سيتمسك بها لتحمله إلى بر الأمان، ولو إلى جزيرة نائية خالية من السكان، المهم بالنسبة إليه أن تنقذه وتخلصه من براثن الوحدة، وتنتشله من أنياب العزلة القاتلة التي فُرضت عليه منذ طفولته، فهو لم يُؤتَ حظًا من حب الناس، مهما حاول التقرب منهم أو ارضائهم وفعل ما يريدون.

ملّ من جميع المقربين منه، وبدأ يشعر أنهم سبب عذابه، لقد وجدهم، كالأوراق اليابسة، يتساقطون من حوله في كل موقف عصيب مرّ به، داس

على عواطفه، وقرر التخلص من تلك العلاقات الرمادية، ومن النفاق الاجتماعي الذي أحاط به من كل جانب، ومن ظنون أصحاب النفوس المريضة، لم يبقَ يؤرقه سوى بعض الذكريات التي تهب بين الحين والآخر لتعكر صفو وحدته، لكنها ما تلبث أن تتباعد نوباتها وتتلاشى شيئًا فشيئًا، صار لا يظهر في البلدة إلا نادرًا، حين يعود ليحمل بعض البضائع لزبائنه، وينقلها سريعًا إلى الولايات والقرى والبلدات البعيدة، كان يشعر، وهو يغادر القرية، أن نفسه ترتاح ويتنفس الصعداء، حتى انه توقف عن البوح للمقربين بمكنوناته وآلامه، وأصبح من الصعب جدًا أن يكشف لأحدهم شيئًا من أسراره، وقد وجد أمانًا وراحة ومتعة كبيرة في البوح للغرباء الذين يرافقونه وهو ينقل بضائعهم من سوق البلدة إلى مدنهم وقراهم البعيدة، كان يدرك أن ما يقوله سيذهب معهم حيث يذهبون، ولن يفهموا سوى ما يريد قوله في تلك اللحظة، كانوا يشعرون بألمه، يتعاطفون معه، يقفون إلى جانبه ويدعمونه، يضحكون ويبكون معه، لأنهم لا يعرفون تفاصيل حكاياته إلا منه، فمعظم آلامه أتته من المقربين الذين وثق بهم، وظنّ أنهم سينقذونه

في أوقات الشدة من الغرق في الأوحال، لكنه لم يجد منهم سوى الطعنات التي وجّهوها إليه في أكثر الأماكن حساسية، فكانت تؤلمه أشد الألم.

ثم التفت إلى ماضيه، إلى أيامه كفتى صغير يحمل آمالاً بريئة وأوهامًا عظيمة، وتذكر كيف ظنّ أن الحب الصافي، الخالي من الشوائب، هو مفتاح السعادة، لكن الآن، بعد أن جُرّد من كل ذلك، اكتشف الحقيقة المرة: أثمن ما يملكه الإنسان ليس الحب ولا قلوب الناس ورضاهم عنه، بل مخافة الله وحبه وطاعته، فالبشر، مهما فعلت وقدمت وضحيت من أجلهم، لن تنال سوى الخذلان والنكران، ولا يتوقفون عند ذلك، بل يتحول الأمر إلى طعنات تسبب جروحًا غائرة لا تندمل مع الزمن".

"عاد عدلان بقوة إلى حياة مليئة بالضياع والخطايا، يقضي لياليه في اللهو والممنوعات، غارقًا في بحر من الندم لم يجرؤ يومًا على مواجهته، وفي إحدى الليالي، بينما كان عائدًا إلى بيته بعد سهرة طويلة، اجتاحت عاصفة هوجاء طريق عودته، هبت الرياح، وانهمر المطر بغزارة، حتى وجد نفسه محاصرًا بجانب وادٍ جارف تضخم من شدة الفيضان، نزل ليتفقد شاحنته،

فانزلقت قدمه فجأة على الوحل، وسقط في الماء البارد، جرفه التيار إلى وسط الوادي، فبدأ يصارع الأمواج العاتية، وشعر أن نهايته اقتربت، في تلك اللحظة، وسط الظلام والخوف، تذكر كلمات سمعها من والده ذات يوم: 'التوبة قشة النجاة لمن أوشك على الغرق'، لم يكن مؤمنًا كثيرًا، لكنه تشبث بتلك الفكرة كما يتشبث الغريق بأي أمل، رفع دعواته إلى السماء وهو يلهث، وقال بصوت مختنق: 'يا رب، إن كنت تسمعني، فقد ضللت طويلًا، وها أنا أتوب إليك، فانقذني!' في تلك اللحظة، وكأن يدًا خفية قادته، اصطدمت قدمه بجذع شجرة عائم، تمسك به بكل قوته، وبعد جهد مضنٍ، استطاع الخروج إلى ضفة الوادي.

جلس على الأرض الرطبة، يرتجف من البرد والدهشة، لكنه شعر براحة لم يعرفها من قبل، استفاق من سكرته، ثم صعد إلى شاحنته بعد أن رأى الموت بأم عينيه، ولحسن حظه، كان دائمًا يحمل معه ملابس إضافية وأغطية يستخدمها للنوم أثناء قطع المسافات الطويلة في الطريق، ارتداها سريعًا، لف نفسه جيدًا، وانتظر بضع ساعات حتى طلوع الفجر، توقفت الأمطار عن الهطول، وقل جريان الوادي، وانخفض منسوبه، وهدأ سيلان

الماء في الطريق، شق طريقه عائدًا إلى القرية، مدركًا أخيرًا أنه أضاع سنوات عديدة من عمره، لكن تلك التجارب والدروس علّمته الكثير، فأصبح أقدر على إدارة حياته، يوجه أشرعته بنفسه، ويبحر كما يريد، لا كما يجرفه التيار أو تدفعه الرياح، عرف وجهته، والمكان الذي سترسو فيه سفينته، عاد الى منزله واصبح حبيس غرفته، لم يكن يغادرها الا للضرورة، عند خروجه لشراء علبة سجائر، او كوب من الشاي من مقهى الحي.

الفصل السادس: بر الامان

كانت الغرفة التي يقطنها عدلان كالقبر: صغيرة، مظلمة، ومثقلة برائحة الماضي الذي لم يعد يطيقه، رائحة عفنة ممزوجة بدخان سجائر قديمة تتسلل إلى الأنف كظلال رمادية. الجدران الصفراء المتقشرة كانت تحمل آثار سنوات من الإهمال، سطحها الخشن يخدش أطراف الأصابع عند المرور، كأنها مرآة تعكس حال روحه الممزقة. السرير المتهالك في الزاوية كان يئن تحت ثقل جسده المنهك بصرير معدني يتردد كشكوى مكتومة، وكأنه يحتج على كل ليلة قضاها عدلان مستلقيًا عليه، يحدق في السقف بحثًا عن معنى لم يجده. على الطاولة الخشبية الصغيرة أمامه، كانت بعض بقايا الطعام وأكواب الشاي الفارغة متناثرة كشواهد على ليالٍ طويلة من الهروب، سطحها اللزج يلتصق بالبشرة، وبجانبها كومة من أعقاب السجائر التي أحرقها واحدة تلو الأخرى، كأنه يحاول أن يحرق معها ذكرياته، رمادها الدافئ يسقط كغبار ناعم على الأرضية الخشبية البالية.

كان الشارع خارج النافذة يعج بالحياة الليلية التي أصبحت جزءًا من روتينه. أصوات المارة المترنحين كانت تخترق الجدران الرقيقة بضحكات متقطعة حادة كشفرات، ممزوجة بضجيج خطوات ثقيلة على الرصيف

المتشقق، وصوت الأورغ الحزين الذي يتسرب من بيت جاره وصديقه عزيز حيث يعزف ألحانه أحيانًا عندما يبيت في منزله. نغماته المنخفضة تتسلل كريح باردة تحمل رائحة البارات القريبة. كان الصوت يتردد في أذني عدلان كصدى بعيد لحياة كان يظن أنها ستنقذه، لكنه الآن يراها كما هي: دوامة من الضياع. لم يكن مع عزيز وزهير تلك الليلة، ولم يلتقِ بهما منذ أن حبس نفسه في غرفته، لكنه كان يشعر بهما كأنهما شبحان يتبعانه أينما ذهب، يذكرانه بكل خطوة خاطئة سلكها، إحساسهما كظلال ثقيلة على كتفيه.

جلس على حافة السرير، وأشعل سيجارة جديدة بيد مرتعشة، أخذ نفسًا عميقًا يملأ رئتيه بحرارة التبغ الحادة، وأطلق الدخان في الهواء ببطء. كان وجهه شاحبًا كورقة جافة، وعيناه محاطتان بهالات سوداء تحكي قصة أيام لم يعرف فيها النوم سوى كضيف عابر. شعره الأسود المجعد الملبد الطويل كان مبعثرًا، يتدلى على جبهته كستار يفصله عن العالم. لم يكن يفكر في شيء محدد، بل كان يشعر بثقل كل شيء دفعة واحدة: وحدة طفولته في البلدة الصغيرة، حيث كان يجلس وحيدًا في غرفته بينما والداه منشغلان بحياتهما الخاصة، يسمع صوت أمه تتحدث إلى الجيران عن أمور

تافهة بصوت عالٍ يخترق الجدران الرقيقة، بينما يعود والده متأخرًا من العمل يحمل رائحة التعب والصمت، عرق مالح يلتصق بملابسه. لم يكن أحد يسأل عنه أو عن أحلامه أو مخاوفه، كان كائنًا غير مرئي في عالم لا يهتم. ثم في المدرسة يجلس في الصف الخلفي يراقب الأطفال الآخرين يلعبون ويضحكون، صوت كراتهم على الأرضية الخشبية يتردد كضحكات بعيدة، يحاول أن يكون جزءًا منهم لكنهم ينظرون إليه كغريب لا ينتمي إليهم. والدته امرأة صلبة الملامح دائمًا مشغولة بترتيب حياة إخوته الأكبر سنًا، توزع أوامرها عليهم بصوت حاد كالريح القاسية دون أن تلقي نظرة إلى عدلان الابن الأصغر الذي كان كظل في البيت، ووالده رجل قليل الكلام يعود من عمله متعبًا، يجلس في الصالة مع كوب القهوة الساخن الذي ينبعث منه بخار مر يملأ الغرفة، ولا يسأل عن ابنه الصغير الذي يختبئ في غرفته. أما إخوته — خالد المتعجرف الذي يراه أقل منه شأنًا، والهادي الهادئ الذي لم يكن يهتم إلا بنفسه، وعمار المشاغب الذي يسخر منه دائمًا بلغة حادة كالسكين — وأخواته اللواتي يتسلطن عليه ويتركنه خارج دائرتهن، فقد جعلوه يشعر أنه غريب في بيته الخاص. كان والداه غائبين

عاطفيًا مما جعله يشعر أنه لا قيمة له، إحساس بالفراغ يعصر الصدر كقبضة حديدية.

تذكر إسماعيل، صديقه الوحيد في أيام الشدة، شابًا طويل القامة ذا عينين حادتين كشفرات، ساعده ذات يوم في العثور على عمل كسائق شاحنة رفقة أخيه سليم. كان يقول له دائمًا: «أنت أفضل مما تعتقد، يا عدلان، فقط ابحث عن طريقك» بصوت دافئ يحمل رائحة القهوة الطازجة، لكنه بعد أن بدأ يرتاد الملاهي ابتعد عنه إسماعيل وترك صداقته الوحيدة تذبل كزهرة بلا ماء.

ثم تذكر سلمى، تلك الفتاة التي كان يراها قشته الأولى، ذات عينين سوداوين عميقتين كآبار الليل وابتسامة تجعل قلبه يرتجف كنبض سريع تحت الجلد. في الأيام الأولى معها شعر أن الوحدة التي لازمته منذ الصغر بدأت تتلاشى، كان يمشي معها في أزقة البلدة الضيقة حيث يتسلل ريح البحر المالح إلى الشعر، وعلى شواطئ المدينة الساحلية الساحرة بعد انتقالها للعيش هناك، رملها الناعم يلتصق بالأقدام الدافئة، يتحدثان عن

أحلامهما وعن مستقبل ظن أنه سيكون ملكهما. كان يراها كالضوء في نهاية نفق مظلم، كالقشة التي ستشده من بحر العزلة الذي كاد يبتلعه. تذكر يوم التقاها لأول مرة في محل صديقه إسماعيل في البلدة، عندما نظرت إليه وابتسمت أول مرة وتلاقت روحيهما فجأة دون سابق إنذار، كانت عيناها تلمعان بالحياة كنجوم في سماء صافية، وابتسامتها تجعل قلبه يخفق بقوة. كان يشعر أنها تراه وتفهمه، وكان ذلك كافيًا ليظن أنها ستكون خلاصه من الوحدة. تذكر ليلة اعترف لها بحبه في تلك الرسالة التي كتبها من أعماق قلبه، وكان القمر يضيء وجهها بضوء فضي ناعم، وكانت ابتسامتها تجعل قلبه يخفق بقوة عندما كانت تطل عليه كل ليلة وهو جالس تحت شجرة الصفصاف التي تقابل نافذة غرفتها، ورائحة أوراقها الرطبة تملأ الهواء، وعلى ضفة شاطئ البحر في تلك المدينة الساحلية، يجلسان في الحديقة العمومية بالبلدة حيث ينبعث عطر الياسمين البري. لكنه تذكر أيضًا عندما ذهبت إلى الجامعة تغيرت، أصبحت بعيدة باردة، حتى جاء ذلك اليوم الذي أخبرته فيه أنها لم تعد تراه جزءًا من حياتها. كانت كلماتها

كالموجة التي أعادت غرقه، تاركة خلفها قلبًا مكسورًا وروحًا تائهة، صوتها باردًا كأنها تتحدث إلى شخص غريب، ملح البحر يحرق الجروح الطازجة.

ثم جاءت نورة في مخيلته أيضًا، القشة الثانية التي تمسك بها بكل قوته، كانت هادئة طيبة وكان يرى في عينيها وعدًا بالاستقرار، عيونها الدافئة كضوء شمعة في ليلة شتاء. خطبها وظن أنها ستكون اليد التي تنتشله من الهاوية، لكنه لم يكن يعلم أن قلبها كان معلقًا بشخص آخر، ضابط تخلى عنها ثم عاد ليأخذها منه. عندما تركته نورة شعر عدلان أن القشة التي كان يتشبث بها لم تكن سوى وهم، وأن الغرق هو مصيره الوحيد. تذكر تلك اللحظة التي رأى فيها الضابط يقف أمامها ونظراتها التي خانت كل وعودها، كانت تلك اللحظة بمثابة طعنة أخيرة جعلته يفقد الثقة في الحب، في الناس، وفي نفسه، كالموجة التي أعادت غرقه مرة أخرى، صوت الأمواج يدوي في أذنيه كضحكة ساخرة.

بعد نورة لم يعد يبحث عن قشة في الحب، بدلاً من ذلك سلك طريقًا آخر، طريقًا مظلمًا مليئًا بالضياع. بدأ يرتاد الملاهي الليلية، يجلس مع عزيز

وزهير، يشرب حتى ينسى، طعم الخمر الحار يحرق الحلق، ويضحك ضحكات جوفاء لا تعكس سوى الفراغ بداخله. كان عزيز عازف الأورغ ذو الشعر الأسود والعينين الحزينتين يعزف ألحانًا تلامس شيئًا في روح عدلان، أما زهير الشاب المرح ذو الصوت العالي فكان يجذبه إلى مغامرات ليلية مع نساء لا يتذكر أسماءهن في الصباح. كانت تلك الليالي مليئة بالضوضاء والأضواء، لكنها لم تكن القشة التي يحتاجها، بل كانت تجعل الغرق أعمق، رأس ثقيل كالرصاص وطعم مر يبقى في الفم.

في تلك الليلة، وبينما كان جالسًا على حافة السرير، شعر عدلان بشيء مختلف، لم يكن الأمر مجرد حزن عابر أو تعب جسدي، كان شعورًا أعمق، كأن روحه بدأت تستيقظ من سبات طويل. نهض ببطء ومشى نحو النافذة الصغيرة المطلة على الشارع، كانت النافذة متسخة مغطاة بطبقة من الغبار تجعل العالم الخارجي يبدو ضبابيًا، فتحها وترك نسمة الليل الباردة تدخل الغرفة، كان الهواء يحمل رائحة التراب المبلل بعد المطر ممزوجة برائحة الدخان والعرق من الشارع أسفله، باردة تنعش الجلد المتصبب.

رفع عينيه إلى السماء ورأى النجوم تتلألأ في صمت، كانت تبدو بعيدة جدًا كأحلامه التي تلاشت مع الزمن. تساءل بصوت خافت: هل هذا كل ما سأكونه؟ رجل تائه في بحر من الخمر والذكريات؟ لم يأتِ الجواب من السماء، لكنه شعر بشيء يتحرك في داخله، كان شعورًا غريبًا، مزيجًا من الألم والرغبة في التغيير. جلس على الأرض بجانب النافذة وأسند ظهره إلى الحائط البارد، أخذ يتذكر حياته قطعة قطعة كأنه يشاهد فيلمًا قديمًا بالأبيض والأسود، إحساس بالبرودة يتسلل من الحائط إلى العظام.

فجأة شعر بثقل كل تلك السنوات يضغط على صدره، لم يكن يريد البكاء، لكنه لم يستطع منع دمعة واحدة من التساقط على خده، كانت تلك الدمعة تحمل كل شيء: الحزن، الخيبة، الوحدة، العزلة، لكنه لم يشعر بالضعف تلك المرة، بل شعر أن تلك الدمعة كانت بداية شيء جديد، كأنها تطهر روحه من كل الأوساخ التي تراكمت عليها، ملحها يلتصق بالشفاه كذكرى مرة.

نهض عدلان ونظر حول الغرفة، كانت تعكس حاله: فوضى، إهمال، ضياع، لكنه لم يعد يريد أن يكون جزءًا من تلك الفوضى. ذهب إلى خزانة ملابسه القديمة وأخرج حقيبة صغيرة كان قد اشتراها منذ سنوات ولم يستخدمها أبدًا، بدأ يضع فيها بعض الملابس ثم توقف، لم يكن يعرف إلى أين سيذهب، لكنه كان متأكدًا من شيء واحد: أنه لم يعد يستطيع البقاء هنا، قماشها الخشن يفرك اليدين كتذكير بالرحيل.

خرج عدلان إلى الشارع وحمل حقيبته على كتفه، كان الهواء باردًا لكنه منعش، ثم توجه إلى شاحنته القديمة التي كان قد اشتراها بمساعدة إسماعيل، كانت شاحنة صغيرة مطلية بالأبيض الناصع تحمل آثار السنين على هيكلها لكنها كانت لا تزال تعمل. فتح الباب وجلس خلف المقود وشعر أن هذه الشاحنة هي التي ستقوده إلى النجاة، جلدها البالي يلتصق بالجسم كاحتضان قديم.

أدار المحرك وانطلق في الشوارع المظلمة تاركًا البلدة خلفه، كان الطريق أمامه ممتدًا والنجوم ترشده كأنها خريطة سماوية. لم يكن لديه وجهة

محددة لكنه شعر أن عليه الابتعاد عن كل ما يعرفه. وبينما كان يقود في تلك اللحظة بدأ يفكر في القشة الحقيقية التي يبحث عنها، لم تكن سلمى ولا نورة ولا الملاهي، كان عليه أن يجدها في مكان آخر، في شيء أكبر من كل ذلك. وبينما كان يقود الشاحنة التي تسير في الظلام بدأ يسمع صوتًا داخليًا خافتًا كأنه نداء قديم كان قد نسيه، كان صوت الإيمان، الطريق الحق الذي ابتعد عنه طويلًا.

كانت الشاحنة تتحرك ببطء عبر الطريق الجبلي المظلم، وأضواء البلدة التي تركها عدلان خلفه تتلاشى تدريجيًا حتى أصبحت مجرد نقاط صغيرة في الأفق. كان الجو داخل الشاحنة هادئًا باستثناء همهمة المحرك المنخفضة وأصوات الكلاب التي كانت تنبح بعيدًا على مسار الطريق. كان عدلان يقود، أحيانًا يلقي نظرة من النافذة الجانبية، يحدق في الظلام الخارجي حيث كانت الأشجار تمر كظلال صامتة على جانبي الطريق. كان الهواء البارد يتسرب من شق صغير في الزجاج، يداعب وجهه ويجعله يشعر بشيء لم يشعر به منذ زمن بعيد: الحياة، ريح جبلية تحمل رائحة الصنوبر الطازجة.

لم يكن يعرف بالضبط إلى أين يذهب، قرر أن يقود شاحنته عشوائيًا إلى وجهة مجهولة، مدينة صغيرة بعيدة لم يسمع بها من قبل، لكنه شعر أن المسافة بينه وبين ماضيه كانت ضرورية. كان يحمل حقيبة صغيرة معه تحتوي على بعض الملابس وبضعة دراهم كان قد أدخرها من أيامه في السوق. لم يكن لديه خطة ولا هدف واضح، لكن شيئًا بداخله كان يدفعه للتحرك، كأن هناك صوتًا خافتًا يهمس له: «لست مضطرًا للغرق بعد الآن»

.بينما كان ينظر إلى الطريق الممتد أمامه، بدأت ذكرياته تعود إليه مرة أخرى، لكن هذه المرة لم تكن ثقيلة كما كانت في غرفته، كانت كأمواج هادئة تتدفق وتتراجع دون أن تسحقه، إحساس بالريح الخفيفة يمسح الوجه كتنهيد.

لكنه الآن يقود شاحنته إلى مكان مجهول، بدأ يشعر أن هناك شيئًا آخر، شيئًا أكبر من سلمى ونورة والملاهي، كان صوتًا داخليًا خافتًا كأنه نداء قديم كان قد نسيه، كان صوت الإيمان، الطريق الحق الذي ابتعد عنه طويلًا. تذكر أيام طفولته عندما كان يذهب مع والده إلى المسجد الصغير في

البلدة، كان يحكي له قصص الأنبياء بصوت عميق يتردد كصدى في الصدر، ويعلمه كيف يصلي، كان يشعر بالسلام في تلك اللحظات، رائحة البخور الخشبي تملأ الأنف، لكنه نسي ذلك الشعور مع مرور السنين، مدفونًا تحت طبقات من الحزن والضياع.

توقف فجأة في محطة صغيرة على جانب الطريق، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل والمحطة شبه خالية باستثناء بائع متجول يحمل سلة من الخبز والشاي. نزل عدلان من الشاحنة ليستنشق الهواء وحمل كوبًا من الشاي الساخن بين يديه، كان البرد يخترق جسده لكنه شعر بالدفء ينتشر في داخله مع كل رذاذ من البخار يتصاعد من الكوب. جلس على مقعد خشبي قديم ونظر إلى السماء مرة أخرى، كانت النجوم أوضح الآن بعيدة عن أضواء المدينة، وكأنها تدعوه للتأمل، طعم الشاي المر يلتصق باللسان.

في تلك اللحظة سمع صوتًا بعيدًا رقيقًا يتردد في الهواء، كان أذان الفجر ينبعث من قرية قريبة. كان الصوت يتسلل إلى قلبه كالماء البارد الذي يروي

أرضًا جافة. توقف عن شرب الشاي وأصغى باهتمام، كان الأذان يذكره بشيء قديم، شيء كان يعرفه لكنه أضاعه. شعر بدمعة تنزلق على خده، لكنها لم تكن دمعة حزن هذه المرة، كانت دمعة راحة، كأن روحه بدأت تجد طريقها إلى الشاطئ بعد سنوات من الغرق.

قرر عدلان ألا يعود إلى البلدة، كان يشعر أن هذه القرية الصغيرة التي لم يكن يعرف حتى اسمها هي المكان الذي يجب أن يكون فيه الآن. ركب شاحنته وقادها باتجاه الصوت متتبعًا الأذان حتى وصل إلى مسجد صغير على طرف القرية. كان المسجد متواضعًا مبنيًا من الطوب الأحمر مع مئذنة قصيرة تكاد لا ترتفع عن الأشجار المحيطة به، كانت الأضواء الخافتة تتسرب من نوافذه وصوت إمام المسجد يتلو آيات من القرآن في صلاة الفجر، نغماته الهادئة تملأ الهواء كنسيم فجري.

تردد عدلان للحظة عند الباب، كانت قد مرت سنوات منذ آخر مرة دخل فيها مسجدًا، وشعر أن قدميه ثقيلتان كأنما يحملان كل خطاياه على أكتافه، لكنه أخذ نفسًا عميقًا ودخل. كان المكان شبه خالٍ باستثناء رجلين

عجوزين يجلسان في الصف الأول وإمام شاب يقف أمامهما. انضم عدلان إليهم في صمت ووقف في الصف يحاول أن يتذكر كيف يصلي، كانت الحركات تأتيه ببطء كأنها ذكريات بعيدة تعود إليه من طفولته، ملمس السجاد الناعم تحت الركبتين يعيد الإحساس بالأرضية الثابتة.

عندما انتهت الصلاة جلس على الأرض ينظر إلى المحراب أمامه، كان الصمت يملأ المكان لكنه لم يكن صمتًا ثقيلًا كالذي اعتاده في غرفته، كان صمتًا مريحًا كأنه يعانق روحه. اقترب منه الإمام وهو شاب في الثلاثينيات من عمره ذو لحية قصيرة وعينين هادئتين، مرحبًا بك أخي، قال الإمام بلطف، لم أرَ وجهك هنا من قبل، هل أنت جديد في القرية؟

لم يعرف عدلان ماذا يقول في البداية، كان يشعر أن كل قصته مكتوبة على وجهه، لكنه اكتفى بالقول: «أنا مجرد مسافر توقفت هنا بالصدفة». ابتسم الإمام وقال: «لا شيء يحدث بالصدفة، ربما أراد الله أن تكون هنا الآن». كانت كلماته بسيطة لكنها اخترقت قلب عدلان كالضوء الذي ينفذ عبر شق في جدار مظلم، دفء ينتشر في الصدر كأشعة شمس أولى.

بعد قليل بدأ الإمام يتحدث عن آية قرأها في الصلاة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، شرحها بصوت هادئ يقول إن الله لا يترك عباده في الضياع إذا عادوا إليه. كان عدلان يستمع باهتمام وكأن الكلمات كانت موجهة إليه مباشرة، شعر أن هذه الآية هي القشة التي كان يبحث عنها طوال حياته، لكنها لم تكن في شخص أو مكان، بل في عودته إلى الله.

قرر عدلان البقاء في القرية لبضعة أيام، استأجر غرفة صغيرة من أحد سكان القرية وبدأ يستخدم شاحنته لنقل البضائع بين القرية والقرى المجاورة: يحمل القمح والشعير والعلف والخضروات للفلاحين والسلع لبعض التجار أيضًا. كان العمل شاقًا لكنه كان يمنحه هدفًا، وأخذ يقضي وقته في المسجد يتعلم من الإمام ويساعد في بعض الأعمال البسيطة مثل تنظيف السجاد أو ترتيب الكتب. كان يشعر أن كل يوم يمر يخفف من ثقل ماضيه، وكأن روحه تتنفس من جديد. بدأ يصلي بانتظام، وكل صلاة كانت تضيف إلى قلبه شعورًا بالسلام لم يعرفه من قبل، رائحة الخشب المحترق في المدفأة تملأ الغرفة كعناق دافئ.

في إحدى الليالي جلس مع الإمام خارج المسجد ينظران إلى السماء المرصعة بالنجوم، سأله الإمام عن قصته، ولم يجد عدلان سببًا للاختباء هذه المرة، روى له كل شيء: وحدته، عدم اهتمام والديه، جفوة إخوته، خيانة سلمى، تخلي نورة، والليالي التي قضاها في الملاهي. كان يتحدث بصوت منخفض كأنه يعترف لنفسه أكثر مما يعترف للإمام. عندما انتهى وضع الإمام يده على كتفه وقال: «كل ذلك كان طريقًا أوصلك إلى هنا، لقد كنت تبحث عن قشة في الأماكن الخاطئة، لكن الله أراد لك أن تجد القشة الحقيقية في رحمته»، يد الإمام دافئة كالأرض الخصبة.

تلك الكلمات بقيت عالقة في ذهن عدلان، بدأ يرى حياته من منظور جديد، لم يعد ينظر إلى سلمى ونورة كخائنتين بل كجزء من رحلة قادته إلى هذه اللحظة، حتى عزيز وزهير بكل ضياعهما كانا مرآة أظهرت له ما لا يريد أن يكونه. كان الإيمان هو القشة الحقيقية التي انتظرها طوال حياته، وكل الخيبات كانت موجات دفعته نحو الشاطئ.

وفي ليلة أخرى، وهو عائد كعادته من المسجد إلى غرفته بعد صلاة العشاء، وقف عدلان خارج المسجد الصغير ينظر إلى السماء المرصعة بالنجوم، كان الهواء باردًا لكنه لم يشعر بالانزعاج هذه المرة، كان البرد يذكره بأنه حي، بأن جسده لا يزال قادرًا على الشعور، وبأن روحه قد بدأت تستيقظ من سبات طويل. كانت النجوم تبدو أقرب الآن بعيدة عن ضوضاء المدينة وأضواءها الخادعة، كانت تلمع بهدوء كأنها ترحب به في عالم جديد، عالم لم يعد فيه غريقًا يتشبث بقشة وهمية.

أغلق عينيه للحظة وتنفس بعمق، كان يشم رائحة التراب المبلل من الأمطار الأخيرة ممزوجة برائحة أشجار الزيتون التي تحيط بالقرية. كان الصوت الوحيد الذي يسمعه هو حفيف الأوراق في النسيم الليلي، وأحيانًا نباح كلب بعيد في مكان ما. ابتسم ابتسامة خفيفة، وكأن قلبه بدأ يتعلم كيف يشعر بالسلام مرة أخرى. لم يعد يشعر بالوحدة التي لازمته منذ طفولته، ولا بالضياع الذي قاده إلى الملاهي والخمرات. لقد وجد قشته الحقيقية، ليس في سلمى أو نورة ولا في عزيز أو زهير، بل في عودته إلى الله، إلى طريق الحق الذي كان قد نسيه طويلًا.

مع مرور الأشهر أصبح عدلان جزءًا لا يتجزأ من القرية الصغيرة، كان قد استأجر غرفة صغيرة من عائلة طيبة في طرف القرية مقابل مبلغ زهيد ومساعدتهم في بعض الأعمال المنزلية. كانت الغرفة متواضعة تحتوي على سرير بسيط وطاولة خشبية ونافذة تطل على حقل من القمح، لكنها كانت مختلفة عن غرفته القديمة في البلدة، لم تكن تعبق برائحة الخمر والدخان وبقايا الطعام، بل كانت تملؤها رائحة الخشب والنباتات التي تنمو في الخارج، نسيم الصباح يدخل من النافذة يحمل رطوبة الأرض.

في أوقات فراغه كان يقضي ساعات في المسجد، يجلس مع الإمام أحمد يستمع إلى دروسه عن القرآن والسنة. كان أحمد رجلاً هادئًا ذا صوت عميق يحمل طمأنينة غريبة، يشرح الآيات ببساطة لكنه يجعلها تبدو كأنها موجهة إلى قلب كل من يستمع. في إحدى الجلسات قرأ أحمد: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، ثم نظر إلى عدلان وقال: «هل شعرت بهذا الضنك في حياتك؟» أومأ عدلان برأسه ببطء، وشعر أن الآية تصف كل ليلة قضاها في الضياع، كل لحظة شعر فيها أن الحياة تضيق عليه حتى كاد يختنق.

بدأ عدلان يتعلم أكثر عن دينه شيئًا فشيئًا، كان يحفظ آيات صغيرة ويحاول أن يطبقها في حياته، يصلي الصلوات الخمس بانتظام، وكل ركعة كانت تخفف من ثقل ماضيه. في البداية كان يشعر بالخجل من أخطائه، لكنه تذكر كلمات أحمد: «رحمة الله أوسع من كل ذنب ما دمت تعود إليه»، كانت تلك الكلمات بمثابة ماء بارد يطفئ نار الندم التي كانت تحرق صدره.

في إحدى الأيام المشمسة، وبينما كان عدلان ينزل بعض البضائع في متجر عمي سعيد، رأى وجهًا مألوفًا يدخل من الباب، كان زهير، صديقه القديم من أيام الملاهي، يرتدي معطفًا قديمًا ووجهه يبدو أكثر شحوبًا مما تذكره. توقف عدلان للحظة وشعر بقلبه يخفق بقوة، لم يكن مستعدًا لمواجهة ماضيه بهذه الطريقة، لكنه استقبل زهير بابتسامة مترددة.

«عدلان، هل هذا أنت حقًا؟» قال زهير بصوت متفاجئ، «سمعت أنك غادرت البلدة لكن لم أكن أتخيل أن أجدك هنا». جلس الاثنان على مقعد خارج المتجر، وبدأ زهير يحكي عن البلدة، كان عزيز لا يزال يعزف في الملاهي

لكنه أصبح أكثر انطواءً، وكان زهير نفسه يشعر بالتعب من تلك الحياة. «كنت أفتقدك»، قال زهير، «لكني أرى أنك وجدت شيئًا مختلفًا هنا».

روى عدلان لزهير قصته باختصار، كيف ترك البلدة وكيف وجد السلام في هذه القرية البعيدة، لم يكن يريد أن يبدو كأنه يعظ، لكنه شعر أن عليه أن يشارك ما تعلمه. «كنت أظن أن القشة التي ستنقذني كانت في الخمر أو الضحكات، لكنها كانت هنا، في العودة إلى الله»، قال بهدوء. نظر إليه زهير للحظة ثم قال: «ربما أحتاج أن أجد قشتي أنا أيضًا».

غادر زهير بعد ساعة، لكن تلك الزيارة تركت أثرًا في عدلان، كان يشعر أن ماضيه لم يعد شبحًا يطارده، بل جزءًا منه يمكنه أن يواجهه دون خوف، كان يدعو في قلبه أن يجد زهير وعزيز طريقهما يومًا ما كما وجد هو طريقه.

مع مرور السنة الأولى في القرية أصبح عدلان رجلاً مختلفًا، كان وجهه يحمل علامات الراحة بدلاً من التعب، وعيناه تلمعان بنور جديد، كان يقضي أيامه بين العمل على شاحنته والمسجد، وأحيانًا يساعد الأطفال في

تعلم القرآن، كان يشعر أن كل خطوة يخطوها هي جزء من رحلة الخلاص، وأن القشة الحقيقية التي أنقذته لم تكن شيئًا ماديًا، بل إيمانه الذي أعاده إلى الحياة.

في ليلة شتوية باردة، وقف خارج المسجد ينظر إلى الثلج وهو يتساقط بهدوء يغطي الأرض بطبقة بيضاء نقية تشبه صفحة جديدة في كتاب حياته، كان الهواء يحمل رذاذًا خفيفًا من البرد لكنه لم يشعر بالانزعاج، كان البرد يذكره بأنه لا يزال حيًا، بأن جسده يتنفس، وبأن روحه قد وجدت أخيرًا ميناءً آمنًا بعد سنوات من التيه في بحر الضياع. رفع يديه إلى السماء وهمس بصوت خافت: «الحمد لله الذي أنقذني من الغرق»، كانت كلماته تخرج مع بخار أنفاسه تتصاعد إلى السماء كدعاء صامت يحمل كل ما في قلبه من امتنان.

نظر إلى القرية من حوله، تلك القرية الصغيرة التي أصبحت ملجأه، كانت البيوت الطينية متناثرة على سفح التل، أضواؤها الخافتة تتسلل من النوافذ كنجوم صغيرة على الأرض، كان يسمع صوت الحطب وهو يتكسر

في المواقد، ورائحة الخبز الطازج تمتزج مع رائحة الثلج. كانت الحياة هنا بسيطة لكنها مليئة بالمعنى، لم تكن كالبلدة والمدينة اللواتي تركهما حيث كانت الأضواء الساطعة تخفي الفراغ والضجيج يغطي على صرخات الروح، هنا كان كل شيء واضحًا صادقًا، كأن الطبيعة نفسها تعانق سكانها وتهدئ من روعهم، لمسة الثلج الباردة على اليد كوعد بالتجدد.

أخرج من جيبه كتابًا صغيرًا كان قد بدأ يحمله معه دائمًا، مصحف صغير أعطاه إياه الإمام أحمد، كان يفتحه كل ليلة يقرأ بضع آيات بصوت خافت وكأنه يتحدث إلى الله مباشرة. في تلك الليلة فتح المصحف على سورة الشرح وقرأ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾، توقف عند هذه الآيات وشعر أنها تتحدث عنه، كان وزر ماضيه قد أنقض ظهره بالفعل، لكن الله بفضله ورحمته وضعه عنه وشرح صدره للسلام الذي يعيشه الآن. أغلق المصحف وضغط عليه بين يديه وكأنه يتشبث بقشته الحقيقية، تلك القشة التي لن تنكسر أبدًا.

استيقظ عدلان في الصباح الباكر قبل شروق الشمس بقليل، كان يحب هذه اللحظات الهادئة عندما كانت القرية لا تزال نائمة والصمت يملأ المكان باستثناء صوت الديكة في الحقول البعيدة. نهض من سريره البسيط، توضأ بالماء البارد من إبريق نحاسي قديم وضعه بجانب النافذة، كان الماء ينعش جسده ويوقظ روحه وكأنه يغسل بقايا أي حلم ثقيل قد يكون زاره في الليل. ارتدى ثيابًا بسيطة: قميصًا قطنيًا وبنطالاً من الجينز، ثم خرج إلى المسجد لصلاة الفجر.

بعد عامين تعرف عدلان على مريم، ابنة أحد فلاحي القرية، كان يشعر بقلبه يخفق بسرعة ليس خوفًا بل امتنانًا. اقترح أحمد الزواج بعد أن لاحظ قربهما، وبعد موافقة والدها أصبحت مريم شريكته في الحياة.

كانت ليلة زفاف عدلان ومريم ليلة هادئة مليئة بالدفء رغم برودة الشتاء، كان المسجد الصغير مزينًا بأضواء خافتة وأكاليل من الزهور البسيطة، رائحتها الحلوة تملأ الهواء. وقف عدلان بجانب مريم، يرتدي ثوبًا أسود بسيطًا، بينما كانت مريم ترتدي فستانًا أبيض مطرزًا بخيوط ذهبية

اللون. بعد الحفل وقف الاثنان خارج المسجد ينظران إلى السماء المرصعة بالنجوم، كان الثلج يتساقط برفق، أمسك يدها بحنان وقال: «أنتِ لستِ قشتي يا مريم، قشتي الحقيقية وجدتها في إيماني، لكنكِ الرفيقة التي سأكمل معها الطريق». ابتسمت مريم وقالت: «وأنا سعيدة أن أكون بجانبك في هذا الطريق»، دفء يدها ينتقل إليه كتيار حياة.

في أحد الأيام المشمسة سمع صوت محرك يقترب، رفع عينيه ورأى شاحنة أخرى تقف بجانبه، ونزل منها إسماعيل، صديقه القديم. احتضنا بعضهما، ثم جلسا تحت شجرة الزيتون، وروى عدلان لإسماعيل كل شيء. «كنتَ دائمًا تقول إنني سأجد طريقي»، قال عدلان، «وها أنا الآن بفضل الله وبفضل نصائحك».

وفي صباح آخر جاءه ساعي بريد بظرف قديم، كان خطابًا من والده يطلب فيه زيارتهم. كتب عدلان ردًا قصيرًا: «أنا بخير الآن، وجدت طريقي، وسأزوركم قريبًا مع زوجتي مريم».

في ليلة مقمرة وقف عدلان ومريم على تل يطل على القرية، أمسك يدها وقال: «الحمد لله الذي أنقذني من الغرق وأعطاني هذه الحياة». ابتسمت مريم وأضافت: «وأعطانا بعضنا». ثم رفع يديه إلى السماء مرة أخرى وقال: «يا رب، لقد كنت غريقًا، وكان إيماني بك هو قشتي الحقيقية، لا تتركني أضيع مرة أخرى».

لقد أدرك أنه كان يبحث في المكان الخطأ، وأن الحب الذي سعى وراءه لم يكن سوى سراب، وأن الحب الحقيقي كان قريبًا منه طوال الوقت، يكمن في محبة الخالق والتذلل له وطاعته ورجائه. هو وحده من أنقذه في كل مرة اشتد به الغرق وسط تلك الأمواج العاتية في بحر الوحدة والعزلة. عرف أنه يجب أن يتوب إلى الله توبة نصوحًا تنقذه من الظلمات التي تاه فيها زمنًا بعيدًا. كان يعلم أن توبته تلك التي جاءت كآخر قشة لم تنقذ جسده من الغرق فحسب، بل أنقذت روحه من ضياع أعمق، ومنذ ذلك اليوم عاش حياة جديدة متمسكًا بتلك القشة التي أصبحت مرساة له.

قشة غريق

العايش زهواني

نبذة عن الكاتب:

العايش زهواني من مواليد 04/04/1976 ببئرالعاتر ولاية تبسة الجزائر، درس جميع اطواره الاولى بمسقط راسه، ثم انتقل للعيش في مركز الولاية تبسة، تحصل على شهادة تقني سامي في تسيير المخزون والتموين(1997/2000)، ومارس العمل المسرحي الهاوي وكتابة السيناريوات المسرحية خلال تلك الفترة، ثم عمل كمراسل صحفي لوكالة القبس بقسنطينة (2000/2004)، وعمل في ميدان التجارة لفترة، وايضا في اطار الادماج المهني لفترة اخرى، وتحصل على شهادة الدراسات الجامعية التطبيقية من جامعة التكوين المتواصل (2013/2016)، ثم حصل على وظيفة بجامعة الشهيد العربي التبسي، ومن مؤلفاته وإصداراته بيت العنكبوت، قشة غريق، مقالات ضجيج داخلي.

مقطع قشة غريق

كانت الغرفة التي يقطنها عدلان كالقبر: صغيرة، مظلمة، ومثقلة برائحة الماضي الذي لم يعد يطيقه، الجدران الصفراء المتقشرة كانت تحمل آثار سنوات من الإهمال، كأنها مرآة تعكس حال روحه الممزقة، السرير المتهالك في الزاوية كان يئن تحت ثقل جسده المنهك، وكأنه يحتج على كل ليلة قضاها عدلان مستلقيًا عليه، يحدق في السقف بحثًا عن معنى لم يجده، على الطاولة الخشبية الصغيرة أمامه، كانت بعض بقايا الطعام واكواب الشاي الفارغة متناثرة كشواهد على ليالٍ طويلة من الهروب، وبجانبها كومة من أعقاب السجائر التي أحرقها واحدة تلو الأخرى، كأنه يحاول أن يحرق معها ذكرياته.

كان الشارع خارج النافذة يعج بالحياة الليلية التي أصبحت جزءًا من روتينه، أصوات المارة المترنحين كانت تخترق الجدران الرقيقة، ممزوجة بضحكات متقطعة وصوت الأورغ الحزين الذي يتسرب من بيت جاره وصديقه عزيز حيث يعزف ألحانه احيانا عندما يبيت في منزله، كان الصوت يتردد في أذني عدلان كصدى بعيد لحياة كان يظن أنها ستنقذه، لكنه الآن يراها كما هي: دوامة من الضياع، لم يكن مع عزيز وزهير تلك الليلة، ولم يلتقهما منذ ان حبس نفسه في غرفته، لكنه كان يشعر بهما كأنهما شبحان يتبعانه أينما ذهب، يذكرانه بكل خطوة خاطئة سلكها.

ISBN: 978-9969-515-35-0

9 789969 515350

العلاطية للنشر والتوزيع